آداب المريدين

تأليف

الشيخ أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد
السهروردي القرشي الصديقي البكري
المتوفى ٥٦٣هـ

ويليه

داعي الفلاح إلى سبل النجاح

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المرصفي
المتوفى سنة ٩٦٦هـ

ضبطهما وصححهما وعلق عليهما
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان
DKI

آداب المريدين

تأليف

الشيخ أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد
السهروردي القرشي الصديقي البكري
المتوفى ٥٦٣ هـ

ويليه

داعي الفلاح إلى سبل النجاح

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المرصفي
المتوفى سنة ٩٦٦ هـ

ضبطهما وصححهما وعلق عليهما
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

الكتاب : آداب المريدين
ويليه: داعي الفلاح
إلى سبل النجاح

Title : ĀDĀB AL-MURĪDĪN
Followed by: DA'Ī AL-FALĀḤ
ILĀ SUBUL AN-NAJĀḤ

التصنيف : تصوف

Classification: Sufism

المؤلف : عبد القاهر بن عبد الله السهروردي (ت ٥٦٣ هـ)
ومحمد بن محمد المرصفي (ت ٩٦٦ هـ)

Author : Abdul-Qaher ben Abdullah As-Souhrawardi (D. 563 H.)
and: Muhammed ben Muhammed Al-Marsafi (D. 966 H.)

المحقق : الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي

Editor : Al-Seikh Assem Ibrahim Al-Kayyali

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	144	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 2nd		الطبعة : الثانية

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN-13: 978-2-7451-4575-8
ISBN-10: 2-7451-4575-4

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمٰن بخلقه، الرحيم بأوليائه، الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء والظاهر فلا فوق له، والباطن فلا تحت له، كان ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، مصداقاً لقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ليس كمثله شيء من حيث ذاته وهو السميع البصير من حيث أسمائه وصفاته، لا تدركه الأبصار من حيث أحديته، ووجوه إلى ربها ناظرة من حيث واحديته، حقائق باطنه الأزلي لا تُحد، ومظاهر شؤونه الأبدية لا تُعد.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، السابق بروحه واللاحق بشبحه، قرآن الأحدية وفرقان الواحدية، سدرة منتهى حقيقة النبوة والرسالة والولاية، والرحمة المهداة في عوالم الملك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «**إنما أنا رحمة مهداة**» ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] الإنسان الكامل والخليفة الحقيقي، والقدوة الحسنة للأنموذج البشري في أرض جسمه ونفسه، وسماء قلبه وعقله، وحقيقة روحه وسره، بما جاء له به من الدين الكامل، الإسلام والإيمان والإحسان، بمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وعلى آله الطيبين الطاهرين المبرَّئين من دنس إثبات سراب الأغيار، المتحققين بقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] وعلى أصحابه الأخيار، المشاهدين لأنوار مقامات حبيبهم المختار، الجامعة للتجليات الآفاقية والأنفسية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وعلى التابعين لهم بإحسان في كل مقام ومقال، حساً ومعنىً، ظاهراً وباطناً، قلباً وقالباً، جسداً وروحاً.

وبعد ففي إطار كتب التصوف الإسلامي، التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وتصحيحها ونشرها بأبهى حلة، خدمة للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل، الذي هو مقام الإحسان؛ مقام التربية والسلوك إلى ملك الملوك وعلاّم الغيوب؛ مقام **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. حرصنا على إصدار كتابين مُعَرِّفَيْن بالتصوف الإسلامي سلوكاً وعقائداً وآداباً ومصطلحات ومتحدثَيْن عن الزهد والتجريد وعن الفقير والصوفي وعن الشيخ المربي والمريد السالك وعن سلسلة الطريقة الشاذلية.

الكتاب الأول هو «آداب المريدين للشيخ العارف بالله تعالى أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي المتوفى سنة ثلاث وستين وخمسمائة، والكتاب الثاني هو «داعي الفلاح إلى سبل النجاح» للشيخ العارف بالله تعالى محمد بن محمد المرصفي المتوفى سنة ٩٦٦هـ.

إن كتب التصوّف الإسلامي تساعد المريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالِم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»** وقوله ﷺ: **«إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم»**.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيامَة: ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ العارف باللّه تعالى
عبد القاهر السهروردي
مؤلف كتاب «آداب المريدين»

● هو الشيخ عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عموية بن سعد السهروردي القرشي الصديقي البكري (أبو النجيب).

● محدّث، فقيه شافعي، مؤرخ، واعظ من أئمة الصوفية.

● ولد بسهرورد سنة ٤٩٠هـ، سكن بغداد وبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه وولي المدرسة النظامية ودرس فيها الحديث.

● توفي ببغداد سنة ٥٦٣هـ تاركاً وراءه مؤلفات عدة منها:

● «آداب المريد» وهو الكتاب الذي بين أيدينا، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«مختصر مشكاة المصابيح للبغوي»، و«مصنف في طبقات الشافعية».

ترجمة الشيخ محمد المرصفي

مؤلف كتاب «داعي الفلاح إلى سبيل النجاح»

٠٠٠ هـ ـ ٩٦٦ هـ

هو الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن محمد زين العابدين عالِم وأديب ومتصوف مصري، أشعري العقيدة، شافعي المذهب، شاذلي المشرب والطريقة، وهو سبط الشيخ الجليل الصوفي علي بن خليل المرصفي الشافعي المديني، من شيوخ العارف الكبير عبد الوهاب الشعراني، توفي المرصفي سنة ٩٦٦هـ تاركاً مؤلفات عدة منها:

«داعي الفلاح إلى سبل النجاح» وهو الكتاب الذي بين أيدينا، و«الإبريز الخاص في فضائل البسملة وسورة الإخلاص»، والأدلة البهية على أفضلية خير البرية»، و«أسفار الصباح في شرح سبيل النجاح»، و«التقاء الصفوف في معنى لباس حملة العرش الصوف»، و«إنسان العين في معنى قول زال البين وناب الواحد من الإثنين»، و«تائية التحقيق»، و«تقديس الفؤاد عن اعتقاد الحلول والاتحاد»، و«المنح الإلهية في التحقيقات الصوفية»، و«الزجاجية البلورية شرح ميمية ابن الفارض الخمرية»، و«الفتح المكي الفائض بشرح يائية ابن الفارض»، و«الكشف الأتم في الاسم الأعظم»، و«كشف الملمات فيما ابتدعه القراء من الألحان والنغمات» وغيرها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة المؤلف

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، وصلواته على خاتَمِ النَّبيِّين سيدنا محمد النبي وآله أجمعين.

اعلم ـ أرشدك الله ـ أن كل طالب لشيء لا بُدَّ له أن يَعْلَمَ ماهيَّتَهُ وحقيقته حتى تتكامل له الرَّغْبَةُ فيه، ولا يصح لأحدٍ أن يَسْلُكَ طَريقَ الصوفِيَّة حتى يعلم عقائدَهم وآدابهم في ظاهرهم وباطنهم، واصطلاحاتهم في كلماتهم، ويفهم إطلاقاتهم في محاوراتهم؛ حتى يَصِحَّ له أن يَحْذُوَ حَذْوَهُم ويَقْفُوَ أَثَرَهم في أفعالهم وأقوالهم؛ فإنه من كثرة المدعين جُهِلَ حالُ المُحَقِّقِين، وفساد المفسدين الفاسدين إليهم يعودُ ولا يَقْدَحُ فِي صلاح الصَّالحين.

مذهب الصوفية في أصل الاعتقاد

فنبدأ أولاً بذكر مَذْهَبِهم في أصل الاعتقاد.

أجمعوا على أن الله تعالى واحدٌ لا شَرِيكَ له، ولا ضِدَّ لهُ ولا شَبِيهَ له ولا نِدَّ له، موصوفٌ بما وصف به نَفْسَه، مسمى بما سمى به نفسه.

ليسَ بجسم، فإن الجسم ما كان مُؤلَّفاً، والمؤلَّف يحتاجُ إلى مُؤَلِّف.

ولا هو بجَوْهَر؛ فإن الجوهر ما كان مُتَحَيِّزاً، والرَّبُّ تعالى ليس بمُتَحيِّز، بل هو خالقُ كل مُتَحَيِّزٍ وحيِّزٍ.

ولا هو بعَرَضٍ؛ فإن العَرَض لا يبقى زمَانَيْن، والرَّبُّ سبحانه واجب البقاء لا اجتماع له ولا افتراق له ولا أبعاض له، ولا يزعجه ذكر، ولا يلحقه فكر، ولا تحققه العبارات، ولا تُعَيِّنُه الإشارات، ولا تحيط به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، وكل شيء عنده بمقدار، ولا يقال كَوْنهُ بل يقال وُجُودُه؛ لأنه ليس كل موجود كائناً وكل كائن فهو موجود وكل ما تُصوِّر في الوهم أو حَوَاهُ في الفهم فالله تعالى بخلافه.

فإن قلت: متى؟ فقد سبق الوقتَ كونُه، وإن قلتَ: كيف؟ فقد احتجب عن الوصف ذاتُه، وإن قلت: أين؟ فقد تقدَّم المكانَ، وجودُه عِلَّةُ كلِّ شيء صَنَعَه، ولا عِلَّةَ لِصُنْعِه، ليسَ بِذَاتِهِ تَكييفٌ، ولا لِفعله تَكْلِيفٌ. احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار؛ لأن العقل على مثله يدل، والعقل آلة العبودية لا للإشارة إلى الربوبية، ليست ذاته كالذَّوات، ولا صفاته كالصفات، وليس معنى العلمِ في وصفه نفْيَ الجهلَ، ولا القدرةُ نفيَ العجزِ.

وأجمعوا على إثبات ما ذَكرَهُ اللّهُ تعالى في كتابه. وصَحَّ عن النبي ﷺ في أخباره، من ذكر الوَجْه واليَد والنَّفْسِ والسَّمْع والبَصَرِ من غير تَمْثيلٍ ولاَ تَعْطيل، كما قال جلّ اسمه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وسُئِل بعضُهم عن الله تعالى فقال: إنْ سَألتَ عَنْ ذَاته فَليس كمثْله شَيْءٌ، وإن سَألْتَ عَنْ صِفَاته فَهُوَ أحَدٌ صَمَد، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أحَدٌ. وإنْ

سَألتَ عَنْ اسْمِهِ فَهوَ اللهُ الذي لا إله إلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَن الرحيم، وإن سألتَ عن فِعْلِه فَكُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأن.

وقولهم في الاستواء مَا قَالَهُ مَالكُ بنُ أنسٍ حين سُئِلَ عن ذلك فقال: الاستواء مَعْلُومٌ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعةٌ[١].

وكذلك مذهبهم في النزول.

وأجمعوا على أنَّ القرآنَ كلامُ اللّهِ وأنه غيرُ مَخْلُوقٍ. مَكتُوبٌ فِي مَصَاحِفِنا مَتْلوٌّ بِألسنَتِنَا، محفوظٌ في صُدُورِنا من غيرِ تَعَرض للكتابة ولا للتِّلاوةِ؛ لأنَّ السُنَّة لم تَرِدْ بذلك.

وأجْمَعُوا على جواز رُؤيَة الله تَعَالى في الجَنَّةِ بالأبصار، وإنما نَفَى اللّهُ الإدراك بالأبصار، لأن ذلك يوجب كيفية وإحاطةً، وليس كذلك الرؤية. والنبي ﷺ شَبَّه النَّظَر بالنظر لا المنظور بالمنظور إليه في قوله ﷺ: «**إنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم يَوْمَ القيامة كما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ الْبَدْرِ لا تضامون في رُؤْيَتِهِ**».

وأجمعوا على الإيمان والإقرارِ بِجُمْلَة ما ذَكَرَهُ الله سبحانه وتعالى في كتابه، وجاءت به الروايات عن النبي ﷺ من الجنّة، والنار، واللَّوحِ، والقَلَم، والحَوْض، والشفاعة، والصراط، والميزان، والصُور، وعذاب القبر، وسؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ، وإخراج قَوْمٍ مِنَ النار بشفاعة الشافعين، والبعث بعدَ الموت، وأنَّ الجنة والنار خُلِقَتَا للبقاء، وأن أهلهما فيهما مُخلدون ومُنَعَّمُون، ومُعذَّبُون، غيرَ أهل الكبائر من المؤمنين فإنّهم في النار لا يخلدون.

وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى خالقٌ لأفعال عبَاده، كما أنه خالق لأعمالهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافات: ٩٦].

وأن الخلق كلهم يموتون بآجالهم.

وأن الشِّرْك والمعاصي كلها بقضاء وقَدَرٍ من غير أن يكون لأحدٍ على الله حُجَّة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ولا يرضى لعبادِه الكفرَ والمعاصي والرِّضَى غيرُ الإرَادَةِ.

---

(١) أورده الذهبي في تذكرة الحفاظ، الطبقة الرابعة [١/ ٢٠٩] والسندي في حاشيته، كتاب الجهاد [٦/ ٣٨].

ويرون الصَّلاةَ خَلْفَ كُلِّ بَر وفَاجِرٍ، ولا يشهدون لأحد من أهل القبلة بالجنة لِخَيرٍ أتَىٰ به، ولا يَشهدون عليه بالنار لكبيرة أتىٰ بها.

ويرون الخلافة في قريش، ليس لأحد مُنازَعتهم فيها، ولا يرون الخروج على الوُلاَة وإن كانوا ظَلَمة.

ويؤمنون بالكُتُب المُنَزَّلَةِ والأنبياء والمُرْسَلِين، وأنهم أفضلُ البشر، وأن محمداً أفضَلهم من بعدهم، وأن الله ختم به الأنبياء.

وأن أفضل البشر من بعده أبُو بَكْرٍ، ثمّ عُمَرُ، ثمّ عثمان، ثمّ عَلِيٌّ، ثمّ تمامِ العشرةِ الذين شَهِدَ لهم رسول الله ﷺ بالجنة، ثمّ القَرْنُ الذي بُعِثَ فيه رسول الله ﷺ، ثمّ العلماءُ العاملون، ثم أنفعهم للناس.

وأجمعوا على تفضيل الرُّسُل علَى الملائكة، واختلفوا في تفضيل الملائكة على المؤمنين، والمفروض أن بين الملائكة تفاضلاً كما أن بين المؤمنين تفاضلاً.

وأجمعوا على أنَّ طلبَ الحلالِ فريضةٌ، وأن الأرض لا تخلو من الحلال؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالَىٰ طَالَبَ العبادَ بطلبِ الحلالِ، ولم يطالبهم إلا بما يمكن أنه يَكْثُر في مَوْضِعِ ويَقِلُّ في موضع، فمن كان ظاهره جميلاً فلا يُتَّهمُ في مالِهِ ومَكْسبه.

وأجمعوا على أنَّ كمالَ الإيمانِ الإقرارُ باللسان، وتصديقٌ بالجنَان، وعملٌ بالأركان؛ مَنْ تَركَ الإقرار فهو كافرٌ، ومَنْ تَركَ التصديقَ فهو مُنَافقٌ، ومَنْ تَركَ العمل فهو فَاسِقٌ، ومَنْ تركَ الاتِّباع فهو مُبتَدِعٌ. وأنَّ الناس يتفاضلون في الإيمان، وأن المعرفة بالقَلْب لاَ تنفعُ ما لم يتكلّم بكلمتي الشهادة، إلا أن يكون له عُذْرٌ يَثْبُتُ بالشرع.

ويرون الاستثناء في الإيمان من غيرِ شَكٍّ على سبيل التأكيد والمتابعة؛ لأن الأمْرَ مُغيَّبٌ، سُئِلَ الحسن البصري: أمؤمن حقاً؟ قال: إنْ أردْتَ مَا يُحْقَنُ به دَمِي، وتَحِلُّ به ذَبِيحَتِي ومُنَاكَحَتِي فأنا مُؤمِنٌ حَقاً، وإن أرَدْتَ ما أدْخُلُ بِهِ الجِنَانَ، وأنْجُو بِهِ من النِّيران، ويَرْضَى بِهِ الرحمٰنُ فأنا مؤمن إنْ شَاء اللّهُ؛ وقد استثنى اللّهُ تعالى في كتابه في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وليس هناك شكٌّ.

سُئِلَ بعضهم عن هذا الاستثناء من الله تعالى فقال: أراد بذلك تأديباً لعباده وتَنبيهاً لهم على أن الحق إذا استثنَى مَع كمالِ عِلْمِهِ فلا يجوزُ لأحدِ الحكم مِن غَيْرِ

استثناء لقصور علمه، وكَذَلك النبي ﷺ قال في أهل المقابر: «**وإنَّا إنْ شَاءَ اللّهُ عن قريب بكم لاحقون**»[١] ولم يكن شاكاً في الموت واللحوق بهم فصحَّ أن الاستثناء قد يكون بغير شك.

وأجمعوا على إباحة الكَسْبِ والتجارات والصناعات على سبيل التعاون على البِرِّ والتقوى، من غير أن يرى ذلك سبباً لاسْتجلاب الرزق، وأن آخِرَ الكسبِ للمرءِ السؤالُ، ولا تحلّ المسألة لغنيٍّ ولا لذي مروءة سَوِيّ.

* * *

فصــل
القول في الفقر والغنى

وأجمعوا على أن الفقر أفضل من الغنى إذا كان مقروناً بالرِّضى، ولذلك اختاره النبيُّ ﷺ، وأشار عليه جبريلُ بذلك حين عُرِضَت عليه مفاتيحُ خزائِنَ الأرض على ألاَّ يُنْقَصَ له مما عند الله جناحَ بعوضة، وأشار إليه جبريلُ ﷺ: أن تَوَاضَع فقال: «**أُريدُ أن أجُوعَ يَوماً وأشبَعَ يَوماً، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليكَ، وإذا شَبِعتُ حَمِدْتُكَ وشَكَرْتُكَ**»[٢] وبذلك يَحتَجُّ مَنْ يَرُدُّ ما يُعْرَض عليه من الدنيا. وقول النبي ﷺ: «**اللهم أحيِني مِسْكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشُرني في زُمْرَةِ المَساكين**»[٣] فلو سأل الله أن يحشرَ المسَاكين في زمرته لكانَ لهم الفخر العميم والفضل العظيم فكيف وقد سأله أن يحشره في زمرة المساكين! وأمره الله تعالى بالصبر معهم فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب إطالة الغرّة والتحجيل في الوضوء، حديث رقم (٢٤٩) [١/٢١٨] وفي باب ما يقال عند دخول القبور. . ، حديث رقم (٩٧٤) [٢/٦٦٩] والحاكم في المستدرك، باب ذكر قول النبي ﷺ: «**أنتم الغر المحجلون**» حديث رقم (٥٨٢) [١/٣٠٩] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي في جامعه الصحيح، باب ما جاء في الكفاف والصبر، حديث رقم (٢٣٤٧) [٤/٥٧٥] وأحمد في المسند من حديث أبي أمامة الباهلي برقم (٢٢٢٤٤) [٥/٢٥٤] ورواه غيرهما ونصه: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً. وقال ثلاثاً أو نحو هذا: فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**».

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (٧٩١١) [٤/٣٥٨] وابن ماجه في سننه، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم (٤١٢٦) [٢/١٣٨١] ورواه غيرهما.

مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، فإن احتجَّ مُحتجٌّ بقول النبي ﷺ: **«اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»**[١] وقال: **«اليَدُ العُلْيَا هي المُعْطِيَةُ واليدُ السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَة»**[٢] قيل له: اليَدُ العُلْيَا تنال الفضيلة بإخراج ما فيها، واليد السُّفْلَى تنالها المَنْقَصَةُ بحصول الشيء فيها. وفي تفضيل السخاء والعطاء دليلٌ على فضل الفقر بأنه لو كان مِلْكُ الشَّيْءِ مَحْمُوداً لكانَ تركه بالعطاء مَذْمُوماً، فَمَنْ فَضَّلَ الغِنَى للإنفاق والعطاء على الفَقْرِ كانَ كَمَنْ فَضَّلَ المعصية على الطاعة؛ لفضل التَّوْبَة وإنما فضْلُ التَّوبة لترك المعاصي المذمومة، كذلك فضلُ الإنفاق إنما هو لإخراج المال المُلْهِي عن الله عزّ وجلّ.

* * *

فصـــل
الفقر غير التصوف

الفقر غير التصوّف، بل نهايته بدايته، وكذلك الزُّهد غير الفقر، وليس الفقر عندهم الفاقةَ والعُدْم فحسب، بل الفقر المحمود الثقة بالله تعالى والرضى بما قسم.

والصُّوفِي غير المَلاَمَتِي فإن المَلاَمَتِي هو الذي لا يُظْهِر خَيراً ولا يُضمِرُ شَراً، والصُّوفِيُّ هو الذي لا يشتغل بالخَلْق ولاَ يلتفت إلى قبُولهم ولا إلى رَدِّهم.

وأجمعوا على أن تَرك الاشتغال بالمكاسب والصناعات، والتفرغ للطاعات أجلُّ وأفضل لمن تَرَكَ الاهتمامَ بطلب الرِّزق، واتَّكَلَ على مضمون الحق إلاَّ أنْ يَسْتَوي عنده الخَلْوَة والجَلْوة والمُخَالَطةُ والعُزْلَةُ، ويصير مشاهداً للقُدْرَةِ في كل حالة وقال بعضُهم لا تكونوا بالرزق مُهتمِّين فتكونوا للرزَّاقِ مُتَّهِمِين وبضمانه غير واثقين. وقيل لبعضهم: من أينَ تَأكُل؟ فقال: لو كان من أين لفَنِي. وقيل لآخر: من أين تأكل؟ فقال: سَلْ مَن يُطْعِمُنِي مِن أينَ يُطْعِمُني؟.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى. . ، حديث رقم (١٣٦١) [٢/٥١٨] ومسلم في صحيحه باب: اليد العليا خير. . ، حديث رقم (١٠٣٣) [٢/٧١٧] وباب كراهة المسألة للناس، حديث رقم (١٠٤٢) [٢/٧٢١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي في تاريخ دمشق، ذكر من اسمه عطية [٤٠/٤٦٢] وابن قانع في معجم الصحابة رقم (٨٤٧) [٢/٣٠٧].

وأجمعوا على أن أفعال العباد ليست بسبب للسعادة ولا للشقاوة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**السَّعيد مَن سَعِدَ فِي بَطْنِ أمِّه والشَّقِيُّ مَن شَقِيَ في بطنِ أُمِّه**»(١)

وأن الثواب فَضْلُه، والعقابَ عَدْلُه. والرِّضى والسّخط نَعتَان قديمان لا يتغيَّران بأفعال العباد، فمن رضي عنه استعمله بعمل أهل الجنة، ومن سَخِطَ عليه استعمله بعمل أهل النار.

ويرون الرِّضى بالقضاء، والصَّبْرَ على البلاء، والشُّكْرَ على النَّعمَاء وَاجِباً على كل أحد، وأن الخوْفَ والرجاء زِمَامَان للعَبْدِ يَمْنعَانه عن سوءِ الأدب، وكل قلب خلا منهما فهو خرابٌ، وأن الأمرَ والنَّهْيَ وأحكامَ الْعُبُودِيَّةِ لازمةٌ للعبد ما دام عاقلاً، غير أنه إذا صفا قلبُه مع الله تسقطُ عنه كُلفَةُ التكاليف لا نفْسَ وجوبها.

وأن البشرية لا تزول عن أحدٍ ولو تَربّع في الفضاء، غير أنها تَضْعُف تارة وتَقْوَى أخرى.

والْحرِّية من رِقِّ النفسِ جائزةٌ في حَقِّ الصِّدِّيقين، والصِّفات المذمومة تَفنَى من العارفين، وتَخْمد في حَقِّ المُرِيدين.

وأن العبدَ يَتَنَقَّل في الأحوال حتى يصير إلى نَعْت الرُّوحَانِيِّين فتُطْوَى له الأرْضُ ويَمْشِي على الماء، ويَغِيبُ عن الأبصار.

وأن الحُب في الله والبُغض في الله من أوثق عُرى الإيمان.

وأن الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر، واجب على مَنْ أمْكَنَه بما أمْكَنَه.

وأجمعوا على إثبات كرامات الأوْلِيَاء وجَوَّزُوها في عصر النبي ﷺ، وفي غير عصره.

ونبُوَّة الأنبياء لم تَثْبُت بالمعجزة، ولكن بإرسال الله تعالى إيَّاهم، والفرقُ بيْنَ المُعْجِزَة والكرامة أن النَّبِيَّ يجبُ عليه إظهارُ المعجزة والتحدي بها.

والوليّ يجب عليه أن يكتم الكرامة إلا أن يُظهرَها اللّهُ تعالى عليه وإنما يظهر للخلق ما كان عند الله ثابتاً.

وأنكرُوا المِراء في الدين، وندبوا إلى الاشتغال بما لهم وعليهم.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط وفي الصغير ومن روايات الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (٢٦٣١) [٣/ ١٠٧] والبيهقي في الاعتقاد، باب القول في الإيمان بالقدر [١/ ١٣٩].

وأجمعوا على إباحةِ لِبْسِ سائر الأنواع من الثياب، إلا مَا حَرَّمت الشريعةُ لِبْسَه علَى الرجالِ، وهو ما كان أكثره إبْريسَماً، ويرون الاقتصار على الأدْرَن من الثياب والخُلْقَان، والمُرَقَّعات أفضَل؛ لقول النبي ﷺ: «**ما قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مما كَثُرَ وألْهَى**»(١) ولأنه من الدنيا التي حَلالُها حِسَابٌ وحَرامُهَا عِقَابٌ؛ ولقوله ﷺ: «**من تَرَكَ ثَوْبَ جَمَال وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى لِبْسِهِ كَسَاهُ اللّهُ مِنْ حُلَلِ الكَرَامَةِ يومَ القيامة**»(٢) ويَخْتَارُون لبسَ المرقعَات لمعان منها: أنها أقلّ مؤونةً، وأقلُّ تَخَرُّقاً، وأبْقَى على صاحبها، وأقربُ إلى التواضع، وأصْبَرُ على الكد، وتدفع الحَرَّ والقرّ، ولا مَطْمَع فيها لأحد من أهل الشر، وتمنع عن الفساد والكِبْر، رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أمَرَنِي حبيبي رسول الله ﷺ أن لا أطْرَح دِرْعاً حتى أُرَقِّعَه» وعن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث ذكره قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يُرَقِّع ثَوْبَه، ورأيتُ أبا بكر رضي الله عنه يتخلل بالعباءة، ورأيتُ عمرَ يُرَقِّع جُبَّتَه بِرِقَاعٍ. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أحَبّ الألوان إلى رسول الله ﷺ الخضْرة وثياب أهل الجنة خُضْر(٣) وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ ثِيَابكم البياض**»(٤) معناه أجمل ثيابكم وألْيَقُها بسائر الناس.

وأجمعوا على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ما لم يُخِلَّ بالمعنى؛ لقوله ﷺ: «**زيِّنوا القرآن بأصواتكم**» ولقوله عليه السلام: «**إن لكُلِّ شيءٍ حلية وحليةُ القرآن الصوتُ الحسن**» ويُكَرِّهُونَ القراءة بالألحان المقطعة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة حم عسق، حديث رقم (٣٦٦٢) [٢/ ٤٨٢] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يكون للمرء من ماله في أولاده. . ، حديث رقم (٣٣٢٩) [٨/ ١٢١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية، حديث في تزويج الفقير، رقم (١٠٢٣) [٢/ ٦٢١].

(٣) رواه في شطره الأول الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٥٧٣١) [٦/ ٣٩] ومن بقية من أول اسمه ميم من اسمه موسى، حديث رقم (٨٠٢٧) [٨/ ٨١] ورواه في مسند الشاميين من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس برقم (٢٥٩٩) [٤/ ١٥] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في تحلي الرجال أما الذهب. . ، حديث رقم (٦٣٢٨) [٥/ ١٩٣] ورواه غيرهما.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٣٠٨) [١/ ٥٠٦] وفي كتاب اللباس حديث رقم (٧٣٧٨) [٤/ ٢٠٥] وابن ماجة في سننه، باب ما جاء فيما يستحب من الكفن، حديث رقم (١٤٧٢) [١/ ٤٧٣] وباب البياض من الثياب، حديث رقم (٣٥٦٦) [٢/ ١١٨١] ورواه غيرهما.

وأما القصائد والأشعار فقد سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال: **«هو كلامٌ فَحَسنُه حَسَنٌ وقَبِيحهُ قَبِيحٌ»**(١) فالحسنُ منه ما كان من المواعظ والحِكم وذكر آلاءِ اللّهِ تعالى ونعمائِه، ونعت الصالحين وصفة المتقين فسماعه مستَحب، وما كان من ذكر الأطلال والمنازل والآلام والأمم فسماعه مباحٌ، وما كان من هَجْوٍ وسُخْفٍ فسماعه حرام، وما كان من وَصْفِ الخدود والقدود والشعور، وما يوافق الطباع والنُّفُوس فسماعه مكروهٌ؛ إلا لعالِم ربَّاني يُمَيِّز بين الطبع والشهوة، والإلهام والوسوسة، قد أماتَ نَفْسَه بالرِّياضَاتِ والمُجَاهدَات، وخمدت بَشَرِيَّته وفَنِيت حُظُوظُه، وبقيت حقوقه، وهو كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ١٨]، وعَلاَمَة مَنْ هذه صِفَتُه أن يستوي عِنْدَه المدحُ والقدْحُ، والعطاء والمنعُ، والجَفَاءُ والوَفَاء؛ سئلَ بعضُ المشايخ عن السماع فقال: مُسْتَحَبٌّ لأَهْل الحَقَائِق، مُباحٌ لأهل النُّسك والورع، مكروهٌ لأصحاب النفوس والحظوظ. وسئل الجنيد عنه فقال: كلُّ ما يجمع العبد بين يدي الله تعالى، ثم قال: فهو مباحٌ.

وأما سماعُ الصوت الحسن والنغمة الطيِّبَة فهو حَظُّ الرُّوح، وهو مباح. لأن الصوت الطَّيِّب في ذاته محمودٌ، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ١] قيل: هو الصوت الحسن الطيب. وقال بعضهم: إنّ الصَّوت الطيِّب لا يُدْخِلُ في القلب شيئاً ولكنه يُحرِّكُ ما في القلب.

ثم إن أهلَ السماع يتفاوتون في حال سَمَاعِهم، فمنهم من يَغْلِبُ عليه في حال سماعه الخوفُ أو الحزْنُ أو الشَّوْق فيُؤديه ذلك إلى البكاء والأنين والشهقة وتمزيق الثِّياب والغَيبة والاضطراب.

ومنهم من يغلب عليه الرَّجَاءُ والفَرَح والاستبشار فيؤدِّيه إلى الطَّرَب والرَّقْص والتَّصفيق، كما رُوِيَ عن داود عليه السلام أنه استقبل السكينة بالرَّقص. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أَتَيْنَا النبي ﷺ أنا وزَيْد وجَعْفَر فقال لجعفر: **«أَشْبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي»**(٢) فَحَجَل فَرَحاً بقوله. وقال لزيد: **«أَنْتَ أخونا ومَوْلاَنَا»**(٣) فحَجَل.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب شهادة الشعراء، حديث رقم (٢٠٩٠٢) [٢٣٩/١٠] والدارقطني في سننه، باب خبر الواحد يوجب العمل حديث رقم (٢) [١٥٥/٤] ورواه غيرهما.

(٢) و(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر، حديث رقم (٤٠٠٥) [٤/ ١٥٥١] والحاكم في المستدرك، ذكر إسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، حديث رقم (٤٦١٤) [١٣٠/٣] ورواه غيرهما.

وقال لي: «**أنت مني وأنا منك**» فحجلت. وقال أبو عبيدة: الحجل أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرى، وقد يكون ذلك بالرِّجْلَين؛ إلا أنه قَفْزٌ وليس بمَشْيٍ.

وقد يحدث للمستمع في حال سماعه شوقٌ إلى ما يُذْكر فيثبُ من مكانه فعْلَ مَنْ يريد الذهاب إلى محبوبه، وإذا علم أن لا سبيلَ إليه كَرَّر الوثوب مِرَاراً، ويدور دَوَراناً مُتَتَابِعاً. وقد يكون ذلك عن تَرَدُّد يظهر في حال خلال السَّمَاع بين الجسد والرُّوح. وذلك لأن الجَسَد سُفْلِيٌّ خُلِقَ من التراب والرُّوح روحانِيَّة عُلْوِية خُلِقَت من الفرح، فالروح تعلو إلى عالمها والجسد ينزل إلى محله إلى أن يقَعَ السُّكون، وقد يكون ذلك منهم على سبيل الفَرَح والتَّنَفّس والتطايب في حال السّماع، وليس بمحظور إلا أنه ليس من صفات المحققين.

وحُكِيَ عن أبي عبد الله أحمد بن عطاء الرَوذْبَارِي أنه قال: سرُّ الصادق في السَّماع ثلاثة: العِلم بالله، والوفاء بما هو عليه، وجمع الهِمَّة. والمكان الذي يسمع فيه يحتاج إلى طَيْبِ الرَّوائح، وحضور الوقار، وعدم الأضداد ورؤية من يتلهى ومن يتسم.

ويسمع على ثلاثة معانٍ: على المحبة، والخوف، والرجاء.

والحركة في السماع على ثلاثة أنواع: الطَّرَب، والوَجْد، والخوف. فالطرب له ثلاث علامات: الرَّقْص، والتَّصفيق، والفرح. والوَجْدُ له ثلاث علامات: الغَيْبَة، والاصطلام، والصرخات. والخوف له ثلاث علامات: البُكاء، واللَّطم والزَّفرات.

* * *

فصـــل
الكلام على فروع الدين وأحكامه

وأما فروع الدين وأحكامه فقد **أجمعوا** على وجوب تَعَلُّم ما لا يَسَعُ جَهْله من أحكام الشريعة، وما يَحِلّ وما يَحْرُم، ليكون العملُ موافقاً للعِلْم، فقد قيل: إذا تجرد العلمُ عن العمل كان عقيماً، وإذا خلا العَملُ عن العِلم كان سقيماً. وقال ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(١).

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، باب فضل العلماء..، حديث رقم (٢٢٤) [١/٨١] والطبراني في المعجم الأوسط والكبير والصغير ومن أبواب الأوسط باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (٩) [١/٧] ورواه غيرهما.

واختاروا من المذاهب مذهب السَّلَفِ فقهاء أصحاب الحديث، ولا يُنكِرُون الاختلاف بين العلماء في الفروع، لقوله ﷺ: «**اختلاف العلماء رحمة**»(١) وسئل بعضهم عن العلماء الذين اختلافهم رحمة من هم؟ فقال: المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجاهدون في متابعة رسول الله ﷺ، المُقْتَدون بالصحابة. وهم ثلاثة أصْنَاف: أصحابُ الحديث، والفقهاء، وعلماء الصوفية.

فأمّا أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ وهو أساس الدين، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧] واشتغلوا بسماعه ونقله وتَدَبُّرِه، وتمييز صحيحه من سقيمه؛ وهم حُرّاس الدين.

وأما الفقهاء فإنهم فُضلوا على أصحاب الحديث ـ بَعْدَ قَبولِ عِلْمِهم ـ بما خُصُّوا به منَ الفَهْم والاستنباط في فقه الحديث والتعمق بدقيق النَّظرِ في ترتيب الأحكام وحدودِ الدين والتمييز بين النَّاسِخ والمَنسوخ، والمُطْلق والمُقَيَّد، والمجمل والمفسر، والخاص والعام، والمحكم والمتشابه؛ فهم حُكامُ الدين وأعلامه.

وأما الصوفية فاتَّفقوا مع الطائفتين في معانيهم ورُسُومهم إذا كان ذلك مجانباً لاتباع الهوى ومنوطاً بالاقتداء، فمن لم يُحِطْ منَ الصُوفية عِلْماً بما أحاطوا به يرجعون فيه إليهم في أحكام الشَّرْعِ وحُدُودِ الدِّين؛ فإذا أجْمَعُوا فَهُمْ على إجماعهم، وإذا اختلفوا أخذَ الصوفية بالأحْسَن والأولَى، وليس من مذهبهم طَلَبُ التَّأويلاَت، وركوب الشهوات. ثم إنهم خُصُّوا بعد ذلك بعلوم عالية، وأحوال شريفة، وتكلموا في علوم المعاملات، وغيوب الحركات والسكنات، وشريف المقامات؛ وذلك مثل التوبة، والزهد، والورع، والصبر، والرِّضى، والتوكل، والمحبة، والخوف، والرجاء، والمشاهدة، والطُّمَأنينة، واليقين، والقناعة، والصدق، والإخلاص، والشكر، والذكر، والفكر، والمراقبة، والاعتبار، والوَجَل، والتَّعْظيم، والإجلال، والندم، والحياء، والجمع والتفرقة، والفناء، والبقاء، ومعرفة النفس ومجاهدتها ورياضاتها، ودقائق الرياء، والشهوة الخفية، والشرك الْخَفِي، وكيفية الخلاص منها. ولهم أيضاً مُسْتَنْبَطَاتٌ من علوم مُشْكِلَة على الفقهاء وذلك مثل العوارض والعوائق، وحقائق الأذكار وتجريد التوحيد، ومنازل التفريد، وخَبَايَات السر، وتلاشي المحدث إذا قوبل

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، في شرحه لحديث رقم (١٥٣) [١/٦٨].

بالقديم، وغيوب الأحوال، وجمع المتفرقات، والإعراض عن الأغراض؛ بترك الاعتراض. فهم مخصوصون بالوقوف على المُشْكِل من ذلك بالمنازلة والمباشرة؛ والهجوم ببذل المهج، حتى طالبوا مَن ادَّعَى حالاً منها بدلائلها، وتكلموا في صحيحها وسقيمها؛ فهم حُمَاة الدين وأعيانه وأنصاره وأعوانه.

ثم إن كُلَّ مَن أشكل عليه شيءٌ من العلوم الثلاثة فَعَلَيْه أن يرجعَ فيه إلى أئمتها؛ فمن أشكل عليه شيءٌ من علوم الحديث ومعرفة الرجال يرجع فيه إلى أئمة الحديث لا إلى الفقهاء، ومن أشكل عليه شيء من دقائق الفقه يرجع إلى أئمة الفقهاء، ومن أشكل عليه شيء من علوم الأحوال والرياضات، ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع فيه إلى أئمة الصوفية لا إلى غيرهم، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ الطريق وسلك المضيق.

فصـل
في ذكر أقاويلهم في التصوف وآدابهم

اختلفت أجوبة المشايخ في التصوف لاختلاف الأحوال. فكلٌّ أجاب على حسب حاله أو على قدر ما يحتمل مقام السائل؛ فإن كان مريداً أجيب على ظاهر المذهب من حيث المعاملات، وإن كان متوسطاً أجيب من حيث الأحوال، وإن كان عارفاً أجيب من حيث الحقيقة.

وأظهر ما قال بعضهم: إن أول التصوُّف علم، وأوسطه عمل، وآخره مَوْهِبَةٌ. فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يُعِينُ على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل.

وأهله على ثلاث طبقات: مريدٌ طالب، ومتوسطٌ سائر، ومُنْتَه واصل. فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب نفس؛ وأفضل الأشياء عندهم عَدّ الأنفاس. فالمريد متعوب في طلب المراد، والمتوسط مطالب بآداب المنازل وهو صاحب تلوين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال وهو في الزيادة، والمنتهي الواصل محمولٌ قد جاوز المقامات، وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال ولا تؤثر فيه الأهوال، كما قيل عن زليخا لما كانت صاحبة تمكين في شأن يوسف لم

تؤثر فيها رؤية يوسف كما أثّرت في اللاتي قطّعن أيديهن، وإن كانت أتمّ في حبه منهن، فمقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات، ومجانبة الحظوظ وما للنفس فيه متعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال. واستعمال الأدب في المقامات. ومقام المنتهى الصَّحْوُ والتمكين، وإجابة الحق من حيث دعاه قد استوى في حالة الشدة والرخاء، والمنع والعطاء والجفاء والوفاء، أكله: كجوعه، ونومه: كسهره، قد فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه، ظاهره مع الْخَلْقِ وباطنه مع الحق، وكل ذلك منقول من أحوال النبي ﷺ وأصحابه؛ أوَّلُه كان متخلياً في غار حراء، ثم صار مع الخلق، ولا فرق عنده بين الخلوة والجلوة، وكذلك أصحاب الصُّفَّة صاروا في حالة التمكين أمراء وزراء؛ فإن المخالطة لا تؤثر فيهم.

* * *

فصل
في ذكر أحكام المذهب

ثم إن للمذهب ظاهراً وباطناً، فظاهره استعمال الأدب مع الخلق، وباطنه منازلة الأحوال والمقامات مع الحقِّ؛ ألا ترى إلى رسول الله ﷺ لما نظر إلى المُصَلِّي وهو يعبث في صلاته قال: «**لو خشع قلْبُه لخشعت جوارحه**»[1]. ولما قال الجنيد لأبي حفص الحداد رحمهما الله: أدَّبْتَ أصحابك آداب السلاطين. قال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. وقال السري رحمه الله: حسن الأدب ترجمان العقل. ومراعاة الأدب فيما بينهم مقدّم على غيره، ألا ترى كيف مدح الله تعالى أهله وشرَّف محلهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣]. وقال أبو عبد الله بن خفيف: قال لي رُويم: يا بُنيّ اجعل علمك مِلْحاً وأدبك دقيقاً. وقيل التصوف كلُّه أدَبٌ؛ لكل وقت أدبٌ، ولكلِّ حالٍ أدبٌ، ولكل مُقَامٍ

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، فيما إذا صلى الفجر ولم يوتر، حديث رقم (٦٧٨٧) [٢/ ٨٦] وأورده أبو عبد الرحمٰن السلمي في آداب الصحبة، حديث رقم (٢٠٦) [١/ ١٢٣] وأورده غيرهما.

أدبٌ. فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حُرِمَ الأدب فهو بعيد من حيث يَظُن القُرْب، ومَرْدُودٌ من حيث يرجو القبول. وقيل: من حُرِم الأدب فقد حُرِم جميع الخيرات. وقيل: من لم يتأدب للوقت فوقته مقتٌ. وقيل: أدب النفس أن تعرِّفهَا الخيرَ وتَحُثهَا عليه وتعرِّفها الشرّ وتَزْجُرَها عنه. وقيل: الأدب سند الفقراء، وزين الأغنياء. والناس في الأدب على ثلاث طبقات: أهلُ الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين؛ فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فيها الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأخبار الملوك، وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم مع العلوم رياضةُ النفوس وتأديبُ الجوارح وتهذيب الطباع، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، والمسارعة إلى الخيرات. وأما أهل الخصوصية من أهل الدين فآدابهم حفظُ القلوب، ومراعاة الأسرار، واستواء السِّرّ والعلانية.

والمريدون يتفاضلون بالعمل، والمتوسطون بالأدب، والعارفون بالهِمَّة. وقيل الهمة ما يبعثك من نفسك على طلب المعالي، وقيمة كل امرىء همته. سئل أبو بكر الواسطي عن مالك بن دينار وداود الطائي ومحمد بن واسع وأمثالهم من العبَّاد فقال: القومُ ما خرجوا من نفوسهم إلا إلى نفوسهم، تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي، إلى خالق الفناء والبقاء.

وسئل الجنيد عن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] فقال: تمنعهم علو هممهم عن رفع حوائجهم إلا إلى مولاهم. وقال الحُصْري في حكاية: إذا زفرت جهَنَّمُ زَفْرَةً فالكل يقول نفسي نفسي؛ الأجلُّ والأدْنَى إلا محمداً ﷺ يرجع إلى حَدِّ الشفاعة فيقول: أمتي أمتي.

فلا يبقى لأحد نفس بلا عِلَّة. فتقول ربي ربي؛ ليعلم أن محل الحوادث لا يخلو من العِلَلِ.

* * *

فصــل
أخلاقهم أجل الخصال

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يومَ القيامة؟**» قالوا: بلى،

قال: «**أَحَاسنكم أخلاقاً، المُوَطَّؤون أكنافاً الذين يَأْلَفُونَ ويُؤْلَفُون**»[١] وقال ﷺ: «**سُوءُ الخُلُق شُؤْمٌ، وشِرَارُكُمْ أَسْوَأُكُمْ أَخلاقاً**» وقال أبو بكر الكتاني: التصوف خُلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف.

ومن أخلاقهم: الحلمُ، والتواضع، والنصيحة، والشفقة، والاحتمال، والموافقة، والإحسان، والمداراة، والإيثار، والخدمة، والألفة، والبشاشة، والكرم، والفتوة، وبذل الجاه، والمروءة، والمودة، والجود، والتودد، والعفو، والصفح، والسخاء، والوفاء، والحياء، والتلطف، والبشر، والطلاقة، والسكينة، والوقار، والدعاء، والثناء، وحسن الظن، وتصغير النفس، وتوقير الإخوان، وتبجيل المشايخ، والترحم على الصغير والكبير، واستصغار ما منه واستعظام ما إليه. وسئل سهل بن عبد الله عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والدعاء له.

هذه أخلاق المتصوفين لا ما قاله وارتكبه المتشبهون؛ فإنهم سموا الطمع زيادة، وسوء الأدب إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولاً، وسوء الخلق صولة، والبخل نكادة، وبذاءة اللسان ملامة؛ وما كان هذا طريق القوم.

وحكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال لبعض أصحابه: قم بنا إلى هذا الذي أشهر نفسه بالزهد. فقصداه فوجداه خارجاً من داره إلى المسجد فنظر أبو يزيد إليه وقد رَمَى نخامةً إلى جانب القبلة فقال لصاحبه: هذا ليس بمأمون على أدبٍ من آداب الشريعة، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه من مقامات الأولياء!! فرجع ولم يُسَلِّم عليه.

(١) النصف الاثني من الحديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عبد الله، حديث رقم (٤٤٢٢) [٤/٣٥٦] ولفظه: «أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وليس منّا مَن لا يألف ولا يؤلف». وأمانصف الحديث الأول فقد رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن من حسن خلقه. . ، حديث رقم (٤٨٥) [٢/٢٣٥] وأما اللفظ الذي ذكر المصنف فقد رواه بزيادة معمر الأزدي في الجامع حديث رقم (٢٠١٥٣) [١١/١٤٤] ونصه: عن هارون بن رئاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون**» ثم قال: «**ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الثرثارون المتشدون المتفيهقون**» قالوا يا رسول الله قد عرفنا الثرثارون المتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**».

فصــل
مقام العبد بين يدي الله في عباداته

أما المقامات فإنها مقام العبد بين يدي الله في عباداته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصَّافات: ١٦٤] وأولها الانتباه: وهو خروج العبد من حَدِّ الغفلةِ؛ ثم التوبة: وهي الرجوع إلى الله تعالى من بعد الذهاب مع دوام الندامة وكثرة الاستغفار، ثم الإنابة: وهي الرجوع من الغفلة إلى الذكر. وقيل: التوبة: الرهبة، والإنابة: الرغبةُ، وقيل التوبةُ في الظاهر والإنابة في الباطن، ثم الورع: وهو ترك ما اشتبه عليه، ثم محاسبة النفس: وهي تفقد زيادتها من نقصانها وما لها وعليها، ثم الإرادة: وهي استدامة الكدِّ، وترك الراحة، ثم الزُّهد: وهو ترك الحلال من الدنيا، والعزوف عنها وعن شهواتها، ثم الفقر: وهو عدم الامتلاك، وتخلية القلب مما خلت عنه اليدُ، ثم الصدق: وهو استواء السِّرِّ والإعلان، ثم التصبر: وهو حمل النفس على المكاره، وتجرع المرارات. وهو آخر مقامات المريدين، ثم الصبر: وهو ترك الشكوى، ثم الرضى: وهو التلذذ بالبلوى، ثم الإخلاص: وهو إخراج الخلق من معاملة الحق، ثم التوكل على الله تعالى: وهو الاعتماد عليه بإزالة الطمع عما سواه.

فصــل
الأحوال معاملات القلوب

وأما الأحوال فإنها معاملات القلوب، وهي ما يحلّ بها من صفاء الأذكار. قال الجنيد: الحال نازلةٌ تنزل بالقلب ولا تدوم، فمن ذلك المراقبة: وهي النظر بصفاء اليقين إلى المغيَّبات، ثم القرب: وهو جمع الهمَم بين يدي الله تعالى بالغيبة عما سواه، ثم المحبة: وهي موافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، ثم الرجاء: وهو تصديق الحقِّ فيما وَعَد، ثم الخوف: وهو مطالعة القلوب بسطوات الله تعالى ونقماته، ثم الحياء: وهو حفظ القلب عن الانبساط؛ وذلك لأن القُرْبَ يقتضي هذه الأحوال. فمنهم من ينظر في حال قربه إلى عظمة الله تعالى وهيبته فيغلب عليه الخوف والحياء، ومنهم من ينظر إلى لطف الله تعالى وقديم إحسانه فيغلب على قلبه المحبةُ والرجاء ثم الشوق: وهو هيمان القلب عند ذكر المحبوب ثم الأنسُ: وهو السكون إلى الله تعالى والاستعانة به في جميع الأمور، ثم الطمأنينة: وهي السكون

تحت مجاري الأقدار، ثم المشاهدة: وهي فصل بين رؤية اليقين ورؤية العيان؛ لقوله ﷺ: «اعبدِ الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) وهو آخر الأحوال، ثم تكون فواتح ولوائح ومنائح تجفو العبادة عنها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

* * *

فصل
في ذكر اختلاف المسالك والمقصود واحد والمقاصد مختلفة لاختلاف حال القاصدين ومقامات السالكين

فمنهم من سلك طريق العبادة، ولازم الماء والمحراب، واشتغل بكثرة الذكر والنوافل، وواظب على الأوراد؛ وهي أسلم الطرق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٨].

ومنهم من سلك طريق الرياضات والمكابدات، وقهر النفس في المخالفات؛ وهي أفضل الطرق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

ومنهم من سلك طريق الخلوة والعزلة طلباً للسلامة من المخالطة وهي أصح الطرق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

ومنهم من سلك طريق السياحة والأسفار والاغتراب عن البلدان وخُمول الذكر؛ وهي أوضح الطرق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ومنهم من سلك طريق الخدمة وبذل الجاه للإخوان وإدخال السرور عليهم؛ وهي أشرف الطرق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

ومنهم من سلك طريق المجاهدات وركوب الأهوال ومباشرة الأحوال.

ومنهم من سلك طريق إسقاط الجاه عند الخلق وقلة الالتفات إليهم، وترك الاشتغال بخيرهم وشرهم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل..، حديث رقم (٥٠) [١/٢٧] وباب لا تشرك بالله..، حديث رقم (٤٤٩٨) [٤/١٧٩٣] ورواه مسلم في صححيه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان..، حديث رقم (٨) [١/٣٧] وحديث رقم (٩) [١/٣٩] وحديث رقم (١٠) [١/٤٠] ورواه غيرهما.

ومنهم من سلك طريق العجز والانكسار كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ومنهم من سلك طريق التعلم والمساءلة، ومجالسة العلماء وسماع الأخبار، وحفظ العلوم؛ وكل طريق يحتاج فيه إلى مُوَفِّقٍ ودليل يأخذ به فيه؛ ليسلم من الحيرةِ والفتنةِ. قيل لبعضهم: إن فلاناً قد رَجَع، فقال: ما أراه رَجَعَ إلا لِوَحشَة الطريق من قلة سالكيها.

* * *

فصـــل
في ذكر قولهم في فضل العلم

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] بدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلّث بأهل العلم، وقال رسول الله ﷺ: **«العلماء ورثةُ الأنبياء»**[(١)] وقال عليه السلام: **«فَضْلُ العَالِم على العَابد كفضلي عَلَى أدناكم رجلاً»**[(٢)]، وقال عليه السلام: **«الناسُ رجلان عالِمٌ ومُتَعَلِّم وسائرهم همج»**[(٣)]. وقيل: العلم روحٌ، والعملُ جسدٌ. وقيل: العلم أصلٌ والعمل فرعٌ. وقيل: العلم حاكم والعمل محكوم عليه. وقد فضل الجمهور من مشايخنا العلمَ على المعْرِفَةِ وعلى العقلِ؛ لأن الله تعالى يوصف بالعِلْم، ولأن العلم حاكم على العَقْل، ولا حكم للعقل على العلم. وقيل: لا ينفع العلم إلا بالعقل وكذلك العقل لا ينفع إلا بالعلم. وقيل لبعض الحكماء: متى يكون الأدب أضر؟ قال: إذا كان العقل أنقص. وقيل: الأدب صورة عقلك فَحسِّن عقلك كيف شئت. ومن فضل العلم أن الهُدْهُد مع قِلَّة خطره أجاب سليمان ﷺ مع علو مرتبته بصولة العلم وقوته في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] مع قلة الاكتراث بتهديده ووعيده.

* * *

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل..، حديث رقم (٨٨) [١/ ٢٨٩] وأبو داود في سننه، أول كتاب العلم، حديث رقم (٣٦٤١) [٣/ ٣١٧] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (٢٦٨٥) [٥/ ٥٠] والدارمي في سننه، باب في فضل العلم والعالِم، حديث رقم (٢٨٩) [١/ ١٠٠] ورواه غيرهما.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٧٥٧٥) [٧/ ٣٠٧] بلفظ: **«الناس رجلان عالم ومتعلم هما في الأجر سواء ولا خير فيما بينهما من الناس»** ورواه غيره.

فصــل
في ذكر آدابهم في محاوراتهم

وهو أن يقصد بكلامه النصح والإرشاد، وطلب النجاة، وما يعود نفعه على الكل، ولا يُكلم الناس إلا على قدرِ عقولهم؛ قال النبي ﷺ: «**أُمِرْنا معَاشِرَ الأَنْبِياءِ أنْ نُكلِّم الناس عَلَى قَدْر عُقُولِهِم**»(١) ولا يتكلم في مسألة لا يُسْئَل عنها، وإذا سئل عنها أجاب على قدر السائل. قيل حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قيل له: يسألك السائل عن مسألة فتجيبه، ثم يسألك آخر عن تلك المسألة فتجيبه بجواب آخر؟ فقال: على قدر السائل يكونُ الجواب. وإذا سأل لا يسأل إلا عن مقامه. ولا يتكلم فيما لا يبلغه استعماله وقد قيل: يجوز ذلك؛ قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ حامل فقه إلى مَن هُوَ أفقه منه**»(٢) ولا يبذل العلم إلا لأهله، وقيل ابذُلِ العلمَ لأهله ولغير أهله؛ فالعلم أمنعُ جانباً من أن يصل إلى غير أهله ولا يتكلم بين يدي من هو أعلم منه؛ سئل ابن المبارك مسألة بحضرة سفيان الثوري فقال: أنا لا أتكلم عند الأستاذين. وقال بعضهم: لا يحسُن هذا العلم إلا لمن يُعَبِّرُ عن وجده وينطق عن فعله. وقيل: من لم ينتفع بسكوته لم ينتفع بكلامه.

ومن الآداب ألا يتكلم في العلم قبل أوانه فيتولد عنه آفات تقطعه عن الفوائد، ويحذر أن يطلب الجاه والمنزلة عند الناس وحُكَّام الدنيا؛ فيكون ممن لا ينفعه الله تعالى بعلمه. وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع وقال ﷺ: «**من طلبَ العلم ليُمَارِيَ به العلماءَ أو يجارِيَ به السُّفَهاءَ أو ليصرفَ به وجوهَ النَّاس إليه فليتبوَّأ مقعدَه من النار**»(٣) ويجتهد في استعمال ما سمعه ويعلمه. فقد قيل: كل من سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به صار ذلك حكمة في قلبه وينتفع به السامعون له، وكل من سَمِعَ ولم يَعْمل به كان ذلك حكايةً يحفظها أيَّاماً ثم ينساها، وقيل: الكلام إذا خرج من القلب وقع على

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (١٦١١) [١/ ٣٩٨] وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٥٩٢) [١/ ٢٢٥] وأورده غيرهما.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٥١٧٩) [٥/ ٢٣٤] وأحمد في المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه، حديث رقم (٢١٦٣٠) [٥/ ١٨٣] ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، سفيان الثوري، [٧/ ٩٦] باختلاف قليل في لفظه. ورواه ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب، حرف اللام، حديث رقم (١٦٦٠) [١٢/ ٣٣٢].

القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذنين. حكى الشبلي أن رويماً قال للجنيد رحمهما الله: كم تنادي على الله بين يدي العامة؟ فقال: أنا أنادي على العامة بين يدي الله تعالى، فقال: قوم أفنوا أسرارهم بالحظوظ وأبصارهم باللحوظ أنى لهم إلى ذكر الله سبيل. وقيل للنُّورِيِّ: لِمَ لا تتكلم على إخوانك؟ فقال: لأنهم في سفر الوحشة. وقد حكى الشبلي أنه قال في مجلس الجنيد: الله. فقال: إن كنت حاضراً فهو ترك الحرمة، وإن كنت غائباً فالغيبة حرام. وسأل أبو بكر الشبلي الجنيد مسألةً فقال له: بينك وبين أكابر الناس عشرة آلاف مقام أولها مَحْوُ مَا بَدَأْتَ به.

* * *

فصــل
الشطحات المحكية عن أبي يزيد وغيره

وأما الشطحيات المحكية عن أبي يزيد وغيره فذلك عند غلبة الحال، وقوة السكر، وغلبات الوجد؛ فلا قبول لها ولا ردّ. قال سهل بن عبد الله: العلوم ثلاثة: علم من الله: وهو علم ظاهر كالأمر والنهي والأحكام والحدود. وعلم مع الله: وهو علم الخوف والرجاء والمحبة والشوق. وعلم بالله: وهو علم بصفاته ونعوته. وقيل: علم الظاهر علم الطريق وعلم الباطن علم المنزل. وقيل: علم الباطن مستنبط من علم الظاهر. وكل باطن لا يقيمه ظهرٌ فهو باطل. وقيل من سمع بأذنه حكَى، ومن سمع بقلبه وعَظ، ومن عَمِلَ بما سمع اهتدى وهَدَى. وقيل: العليم يهتفُ بالعمل إن لم يجبه ارتحل. وقيل: العلم إدراك الشيء على ما هو به. والعقل بصيرة وقوة في القلب، منزلته من القلبِ منزلة البصر من العين، يُفرّق بها بين الحق والباطل والحَسَن والقبيح. وقيل: العالم يُقتدى به، والعارف يُهتدى به. وقيل: العلم ما شاهدته خبراً، والمعرفة ما شاهدتها حساً. وقيل الوَرِعُ يُخْدَع والعاقل لا يخدع. وقيل: العقل ما يباعدك عن مراتع الهلكات. وقيل: أصل العقل الصمتُ، وباطنه كتمان الأسرار، وظاهره الاقتداء بالسنة. وقيل: إذا غلب الهوى تَوَارَى العقلُ. وقيل: إذا قلت العقول كثرت الفضول. وقيل: إذا أردتَ أن تعرفَ العاقلَ من الأحمقِ فحدِّثه بالمحَال، فإن قَبِلَ فاعلم أنه أحمق. وقيل من احْتَجْتَ إلى شيء من علومه فلا تنظر إلى عيوبه؛ فإن نظرت في عيوبه حُرِمت بركة الانتفاع بعلومه.

* * *

فصـــل
في ذكر آدابهم في حال البداية

أوّل ما يلزم المريد ـ بعد الانتباه من غفلته ـ أن يقصد إلى شيخٍ من أهل زمانه، مُؤتمَن على دينه، معروف بالنصح والأمانة، عارف بالطريق. فيسلِّم نفسه لخدمته، ويعتقد ترك مخالفته، ويكون الصدق حالته. ثم يلزم الشيخ أن يعرِّفه كيفية الرجوع إلى سَيِّده، ويدله على الطريق. ويُسَهِّل عليه سلوكها، ويعلمه شرائع الإسلام مما له وعليه، وأولى الأشياء به تصفيةُ المَطْعَم والمَشْرَب والملبس؛ لأنه بذلك يجد الزيادة في حاله. قال رسول الله ﷺ: «**طَلب الحَلالِ فريضةٌ بعد الفريضة**»(١). وقال بعضُهم: طلب الحلال فريضة على الكل، وترك الحلال فريضة على هذه الطائفة إلا على حَدِّ الضرورة. ثم قضاء ما ضيِّع من الفرائض، ثم رد المظالم على أهلها؛ لقول النبي ﷺ: «**رَدُّ دَانق من حرام يَعْدِل عند الله سبعين حَجّة**»(٢) وما كان عليه من ضرب وجرح وقطع فالقصاص، وما كان من غيبةٍ ونميمةٍ أو شتيمة فالاستحلال والاستغفار لصاحبها، ثم معرفة النفس وتأديبها بالرياضات، ولها صفتان: انهماك في الشهوات وامتناع من الطاعات فَيُرَوِّضها بالمجاهدات: وهي فطم النفس عن مألوفاتها، وحملها على خلاف أهويتها، ومنعها من الشهوات، ويأخذها بالمكابدات، وتجرع المرارات؛ بكثرة الأوراد، واستدامة الصوم والنوافل من الصلوات، مع الندمِ على المخالفات، ونقلها عن قبيح العادات، ويجتهد أن يتعوَّضَ عن النوم سهَراً، وعن الشِّبَعِ جُوعاً، وعن الرفاهية بؤساً، فيكون حينئذ من جملة التائبين المختصين بمحبة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]. وقال النبي ﷺ: «**الشابُّ التائبُ حبيبُ الله**»(٣) ويكون من الذين يُبدل الله سيئاتهم حسنات، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَيتمنَّينَّ أقوام أنّهم أكْثَرُوا من السيئات**» قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يُبدِّل اللّهُ سيئاتهم حسنات**»(٤) ويكون من جملة المختصين بدعوة حملة

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٩٩٩٤) [١٠/ ٧٤] والقضاعي في مسند الشهاب، كسب طلب الحلال فريضة. . ، حديث رقم (١٢٢) [١/ ١٠٤] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الذهبي في ميزان الاعتدال، من حديث من اسمه محمد، برقم (٥٥٤ ـ ٨٣٨) [١/ ٢٨٤].

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٥٣٥٥) [٣/ ٤٤٢] وأبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم، [١/ ١١٨].

العرش لقوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩] فلقد عظَّم أقدارَهم إذ جعلَ حملةَ العرش داعينَ لهم، لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلُ العَامِلُون، وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافس المُتَنَافِسُون.

والتوبة فرضٌ على جميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النّور: ٣١] وقوله عزّ وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١١] قال بعض المشايخ: غفلتك عن التوبة لذَنْبٍ ارتكبته أشَدُّ من ارتكابه، ومن اخترمَتْه المنيّة قبل التوبة فأمره إلى الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرّعد: ٦] الآية، ووقتها باق ما لم تبلغ الروح الحلقوم، أو يأتي غلق باب التوبة، فحينئذ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنت من قبل أوْ كسبت في إيمانها خيراً. ثم يلازم الورع في جميع أحواله، ويعلم أن الله تعالى محاسبُه على الاستقصاء. قال الله تـعـالـى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٤٧]. فإذا صَحّ له مقامُ التوبة والورع، وشرع في مقام الزُهْد فقد آن له لِبْسُ المرقعة إن رغب فيها، فليراعِ ما يلزمه في لِبْسها لِئلاً يصير هَجِيناً، أو يخرج مبهرجاً، وقد وهت هذه القاعدة، وارتفع التمييزُ وانحل النظام، ووقع الرضى من جنبة الأتباع للأرقاق، ومن جنبة المتبوعين بالأتباع، ومن ذلك ينتشر الفساد، ويظهر العناد، فَمُلْبَس المرقعة يجب أن يكون قد أدّب نفسه بالآداب، وراضها بالمجاهدات والمكابدات، وتحمل المشاقّ، وتجرع المرارات، ويكون قد جاوز المقامات، وتأدب بالمشايخ الذين يصلحون للاقتداء، وصحب رجال الصدق، وعرف أحكام الدين وحدودَه، وأصول المذهب وفروعه، ومن لم يكن بهذه الصفة فحرامٌ عليه التصدِّي للمشيخة والإرادة، وقيل: من لم يتأدب برؤية عيوب أفعالِهِ ورعونات نفسه والعمل في إزالتها بجهده لم يجز الاقتداء به، ثم يأخذ نفسه بالمجاهدات ويتفقد زيادتها من نقصانها وما لها وعليها، ويعرض حاله على شيخه فيما يعرض له وعليه في كل وقت، فقد قيل: ليس بلبيب من لم يصف ما به إلى الطبيب. حكي عن الشيخ أبي محمد بن سلمة رحمه الله قال: كل مريد لا يصح له في اليوم والليلة كذا كذا مسألة فإنه ما سلك الطريق، وحكي أن جماعة من المريدين حضروا عند الشبلي فوجدهم في غفلة لا يذكرون مسألة فأنشد:

كَفَى حُزْناً بِالوَالِهِ الصَّبِ أنْ يَرَى مَنَازِلَ مَنْ يَهْوَى مُعَطَّلَةً قَفْرا

ثم يُطَالبُ نَفْسَه بمنازلِ المقامات على ترتيبها، ولا ينتقل من مَقَام إلاّ بَعْدَ تصحيح آدابه، ولا يشتغل بالزُّهد إلا بعد الفراغ من الوَرَعِ وما أشبه ذلك، إلى أن تصير المعاملات إلى القلوب.

وقال بعضهم: العمل بحركات القلوب أشرف من العمل بحركات الجوارح. وقال النبي ﷺ: **«لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمان أهل الأرض لرجح بهم»**(١) وقال ﷺ: **«مَا فَاقَ أبو بكرٍ بكثرةِ الصلاة والصيام ولكن بشيء وَقَرَ في قَلْبه»**(٢) ولهذا ظهر من حاله بعد وفاة رسول الله ﷺ ما لم يظهر من حال غيره حين صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من كان منكم يعبُد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبُد ربَّ محمد فإن رَبَّ محمد حيٌّ لا يموت. وقاتل أهل الرِّدَّة حتى حفظ الإسلام، وقال بعض المشايخ: إذا صارت المعاملات إلى القلوب استراحت الجوارح، فحينئذ يشتغل بعمارة الباطن. ومباشرة الأحوال، ومراعاة الأسرار وعَدِّ الأنفاس، كما قيل: عبادةُ الفقيرِ نَفْيُ الخَوَاطِر.

وليحذَر كلَّ الحذر أن يُفْسِدَ بدايته بقول المثنين ومدح المادحين، بل يرجع إلى ما يعرف من نفسه، كما قيل: ليس سماع الألفاظ كمشاهدة الألحاظ، ويُعوِّد نفسه صيام النهار وقيام الليل، وخِدمة الإخوان. قال الجنيد رحمه الله: كل مريد لا يعوِّد نفسه صيام النهار وقيام الليل فكأنه تمنى ما لا يصلح له. ثم يراعي أن ينفق أوقاته في ضرب من الخير، فإن الوقت إذا فات لا يُدرَك قال النبي ﷺ: **«لاَ يَنْبَغِي للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمَّة لمعاش، أو تَزَودٍ لمعاد، أو لَذَّة في غير مُحرَّم»**(٣) وقال علي رضي الله عنه: ينبغي للمؤمن أن يكون له أربع ساعات من النهار: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يأتي فيها العلماء الذين يُبصرونه

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب القول في زيادة الإيمان..، حديث رقم (٣٦) [١/ ٦٩] وابن راهويه في مسنده، ما يروى عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، [٣/ ٦٧٢] ورواه غيرهما.

(٢) أورده الهروي في المصنوع، [١/ ٢٨٤] والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٢٢٨) [٢/ ٢٤٨] وأورده غيرهما.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الاستحباب للمرء..، حديث رقم (٣٦١) [٢/ ٧٨] وفيه: «أن لا يكون ظاعناً» بدل «أن يكون شاخصاً». وعبد الرزاق في مصنفه، باب المجالس بالأمانة، حديث رقم (١٩٧٩٠) [١١/ ٢١] ورواه غيرهما.

بأمر الله وينصحونه، وساعة يخلّي بين نفسه ولذَّاتها فيما يحلُّ ويجمل. قال الجريري: دخلت على الجنيد وهو مُهتمٌّ فقلت له: ما لك؟ قال: فاتني شيء مِنْ وِرْدِي. فقلت له: أعِدْه. قال: كيف وهي أوقات معدودة؟ وقال بعضهم: من سبق بخطوة لا يُدْرَك إذا كان صادقاً. والمريد يجب ألا يخلو ظاهره من الأوراد وباطنه من الإرادات إلى أن ترد عليه الواردات فحينئذ يكون مع الواردات لا مع الأوراد ولا مع الإرادات. ورأى بعض المشايخ سبحة في يد مُريد فقال: ما تعمل بها؟ قال: أعدّ التسبيحات. فقال: عليك بعَدِّ السيئات لا بعد التسبيحات، وينبغي أن يَغْتَنِم خدمة الإخوان، ويقدمها على النوافل، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رُئِي رسول الله ﷺ فارغاً في أهله؛ إما أن يخصف نعلاً لمسكين أو يخيطَ ثَوْباً لأرمَلة[١]. حكي عن أبي عمرو الزُّجَاجي أنه قال: أقمتُ عند الجنيد مدَّةً مديدةً فما رآني قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة، فما كلمني حتى كان يوماً من الأيام خلا للوضع من الجماعة فقمتُ ونزعت ثيابي، وكنست الموضع ونظَّفْتُه. ورششته، وغسلت موضع الطهارة. فرجع الشيخُ ورأى عَليَّ أثر الغُبَار، فدعاني ورحّب بي ودعا لي وقال: أحسنت، هكذا عليك بها، عليك بها ثلاثاً.

وَيُكره للمريد مفارقة أستاذه قبل انفتاح عين قلبه، عليه أن يصبر تحت أمره ونهيه في خدمته. قال بعض المشايخ: من لم يتأدب بأوامر الشيوخ وتأدبهم فلا يتأدّب بكتاب ولا سُنَّة. وقيل: علامة المريد السمعُ والطاعةُ للدليل وترك التبصر عند الطبيب. وقال بعض المشايخ: إذا رأيت المريد قائماً مع الشهوات، طالباً لحظوظ النفس فاعلم أنه كَذَّاب، وإذا رأيت المتوسط غافلاً عن حفظ قلبه ومراعاة أحواله فاعلم أنه كذاب، وإذا رأيتَ مَن يشير إلى معرفة ويُمَيِّزُ بين المدح والذم والقبول والرِّدة فاعلم أنه كذاب. وقال الجنيد: لولا العلامات لادّعى كلُّ إنسان سلوك الطريقة. قال الله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمّد: ٣٠].

---

(١) رواه أبو الفرج في صفة الصفوة، ذكر عيشه وفقره. . ، [١/ ٢٠٠] وأبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله في تاريخ دمشق، باب ذكر تقلله. . ، [٤/ ١٠١] وأورده غيرهما ونصه: عن عائشة قالت: ما رفع رسول الله ﷺ قط غداء لعشاء ولا عشاء قط لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين لا قميصين ولا ردائين ولا إزارين ولا من النعال ولا رئي قط فارغاً في بيته إما يخصف نعلاً لرجل مسكين أو يخيط ثوباً لأرملة.

ويجب أن يعلم أنه لا يصح له حالٌ، ولا مقامٌ، ولا عبادةٌ إلا بالإخلاص. وهو تصفيتها عن رؤية الخَلْقِ؛ فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقولُ الله تعالى: أنا أغْنَى الشُرَكاءِ عَنِ الشِّرك؛ فمن عمل لي عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا بريء منه ومِنْ عَمِلِه**»[1] وقال بعضهم: كلُّ حقٍّ شارك الباطل فقد خرج من قسمة الحق إلى قسمة الباطل فإن الحق غيور. ولا بأس بما يظهر من أحواله وعباداته من غير قصد له في إظهاره. ولا يصح له الإخلاص إلا بمعرفة مقادير الخلق وضعفهم، وقلة نفعهم وضرهم كما وصفه الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقال النبي ﷺ: «**لا يجد أحدُكم حلاوةَ الإيمان حتى يَعْلَمَ أن ما أصابَه لم يكُنْ ليُخطِئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبَه**»[2] وقال ﷺ: «**إن من ضَعْفِ اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله تعالى، وأن تحمدهم على رزق الله تعالى، وأن تَذُمَّهم على ما لم يُؤْتِك الله؛ إن رزق الله لا يجره إليك حرصُ حريصٍ، ولا يدفعُهُ عنك كَرَاهَةُ كَارِه**»[3]. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

* * *

فصــل
الاجتهاد في معرفة النفس وأخلاقها

ويجتهد في مراعاة نفسه ومعرفة أخلاقها؛ فإنها الأمَّارَةُ بالسوء، ولا يَغْفلُ عنها وإن تناهى في المعرفة؛ فإن النبي ﷺ كان مُراعياً لها، ومستعيذاً بالله من شرِّها. وكان

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله غير الله تعالى..، حديث رقم (٢٩٨٥) [٤/ ٢٢٨٩] وابن خزيمة في صحيحه، باب ذكر نفي قبول صلاة المرائي بها عن الطعام..، حديث رقم (٩٣٨) [٢/٦٧] ورواه غيرهما.

(٢) رواه في نصفه الأول البيهقي في سننه الكبرى، باب شهادة أهل العصبية، حديث رقم (٢٠٨٥٢) [١٠/ ٢٣٢] وأبو يعلى في مسنده، بقية مسند أنس، حديث رقم (٣٢٥٩) [٦/ ٢٢] ورواه غيرهما.

ورواه في نصفه الثاني الترمذي في سننه، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، حديث رقم (٢١٤٤) [٤/ ٤٥١] وعبد الرزاق في مصنفه، باب القدر، حديث رقم (٢ ـ ٢٠٠٨٣) [١١/ ١١٨] ورواه غيرهما.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ذكر حديث جمع القرآن، حديث رقم (٢٠٧) [١/ ٢٢١] وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ذكر المصطفين من أهل بسطام أبو يزيد البسطامي [١٠/ ٤٠]، وأورده غيرهما.

عليٌ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أنَا ونفسي إلا كرَاعِي غَنَم كُلَّما ضَمَّها من جانب انتشرت من جَانب. وقال أبو بكر الورّاق: النفس مُرَائِيَة على جميع الأحوال، مُنَافِقَةٌ في أكثر الأحوال، مُشركةٌ في بعض الأحوال. وقال الواسطي: النَّفْسُ صَنَمٌ والنظرُ إليها شِرْكٌ، والنظر فيها عبادة. وقيل: مَثَلُها في إبداء الحَسَنِ وإخفاءِ القَبيح مثلِ الْجَمْرَةِ لونُها حَسَنٌ وإنها لتحرق؛ وإنْ عُوقِبت تَشَوَّقَتْ لِلتوبَة، وتمنَّت الأوْبَة وإن عُوفِيت رَكِبَت هواها وأعرضت. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فُصّلَت: ٥١] وقيل: مثل النفس مثل ماء واقف صَافٍ إنْ حَرَّكْتَهُ تبيّن ما تحته من الحَمْأة والنَّتَن.

ويعلم أنها طلبت أن تكون لله ضِداً في دَعْوَاها، ونِدًا في مطالبتها، وذلك أن الله تعالى طالب عباده بالثناء عليه والمدح له فطلبت النفسُ ذلك، وطالب الله العبادَ ألا يخالفوا أمْرَه ونَهْيَه وطلبت النفس ذلك، وطالبهم أن يَصفُوه بالسخاء والكرم وطلبت النفس ذلك، وطالبهم أن يكون هو المرغوب إليه والمرهوب منه وطلبت النفس ذلك. وقيل: النفس لطيفةٌ مودوعَةٌ في هذا القالب، وهي محل الأخلاق المحمودة؛ كما أن البصر محل الرُّؤية، والأذُن محلّ السَّمْع، والأنفُ محلّ الشَّمِّ. وقيل: الرُّوح معدنُ الخير، والنفس مَعْدِنُ الشَّرِّ، والعقل جَيْش الرُّوحِ، والهَوَى جَيْش النَّفْس، والتوفيق من الله مَدَد الرُّوح، والخذلان مَدَدُ النفس، والقلبُ في أغلب الجيشين.

ويعلم أن جملة الأمور ثلاثة: أمرٌ بَانَ رُشْدُه فيجب متابعته، وأمرٌ بَانَ غيُه فيجب مُجَانَبَتُه، وأمرٌ مُشْتَبَهٌ فيجب مُتَارَكَتُه إلى أن يتبين الرُّشْدُ من الغَيِّ من جهة العلم أو من جهة العقل. وقيل: إذا عَرَضَ لك أمران شَكَكْتَ في خيرهما، فانظر في أبعدهما من هواك فَأْتِه فإنه خيرهما.

وعلى المريد أن يجتهد في تبديل أخلاق النفس كالكبر والبخل والحرص والأمل والحدة والحَسَد، والرياء والمِرَاء، والمنازعة والغَيْبَة والتَحْرِيش وسوء الظن والوقاحة، وغيرها من الأخلاق الذميمة بضدِّها من الأخلاق الحميدة وبالله التوفيق.

* * *

فصل
في ذكر آدابهم في صحبة بعضهم بعضاً

قيل:

وحدةُ الإنسانِ خيرٌ مِنْ جَليسِ السُّوءِ عِندَه
وجَليسُ الخيرِ خيرٌ مِنْ جُلوسِ المَرْءِ وَحدَه[(١)]

قال رسول الله ﷺ: **«المرء علَى دينِ خَليلِهِ، فلينظر أحدكم من يخالل»**[(٢)] وقال ﷺ: **«المُؤمِنُ الَّذي يُخالِطُ الناسَ ويصْبِرُ على أذاهُم خيرٌ من المؤمِنِ الذي لا يُخالِطُهم ولا يصبر على أذاهم وفي الكل خير»**[(٣)] وقال ﷺ: **«لا خير فيمن لا يألَف ولا يؤلَف»**[(٤)] وسئل أبو حفص النيسابوري عن أحكام الفقر وآداب الفقراء في الصحبة فقال: حفظ حُرمات المشايخ، وحسن العِشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغِر، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، وملازمةُ الإيثار ومجانبة الادِّخار، والمعاونة في أمر الدُّنيا والدِّين.

* * *

فصل
مصاحبة الجنس ومن يستفيد منه خيراً

ومن آدابهم أن يصحب الجنس ومن يستفيد منه خيراً وقال بعضهم: أولى الناس بالصُّحبة من يوافقك في اعتقادك، وتحتشمه في مجالستك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٧٣] ولا يصحب من يخالفه في مذهبه وإن كان

(١) لم أعثر على قائل هذه الأبيات.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٧٣١٩) و(٧٣٢٠) [٤/١٨٨ ـ ١٨٩] وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (٨٠١٥) [٢/٣٠٣] وحديث رقم (٨٣٩٨) [٢/٣٣٤] ورواه غيرهما.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه، باب الصبر على البلاء، حديث رقم (٤٠٣٢) [٢/١٣٣٨] والبيهقي في سننه الكبرى، باب فضل المؤمن القوي. . ، حديث رقم (١٩٩٦٠) [١٠/٨٩] ورواه غيرهما.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (٥٩) [١/٧٣] والبيهقي في سننه الكبرى، باب شهادة أهل المعصية، حديث رقم (٢٠٨٨٦) [١٠/٢٣٦] ورواه غيرهما.

قريباً منه، ألا ترى نوحاً ﷺ لما قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هُود: ٤٥] كيف أُجِيب: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هُود: ٤٦] وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَمّا نَزَلَ قولُه تعالى**: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَل لِفَاجِرٍ عِنْدِي يَداً فَيُحِبُّهُ قَلْبِي»[١] بل يصحب من يَثِقُ بدينه وأمانته ومذهبه وورعه في ظاهره وباطنه.

ومن آدابهم القيام بخدمة الإخوان والأصحاب، ورفع المؤن عنهم، واحتمال أذاهم، وترك الإنكار عليهم إلا فيما يخالف الشرع، ويعرف لكل واحدٍ قدره على مرتبته؛ قال سفيان بن عُيَيْنَة: من جهل أقدار الرِّجَال فهو بِقَدْرِ نفسه أَجْهل. وقال: لا يَسْتَخِفُّ بأقْدَار الرِّجَال إلا مَنْ لا قَدْرَ لَه. ويهدي إلى صاحبه عُيُوبَه وَيُدِلُّهُ على ما فيه صلاحُه وجَمَاله؛ قال النبي ﷺ: «**المؤمن مِرآةُ المُؤمِن**»[٢] وقال عمر رضي الله عنه: رحم اللَّهُ امرءًا أَهْدَى إلَيَّ عُيُوبي.

ومن آدابهم أن يَصْحَبَ كل أحدٍ على قَدْر حالِهِ وما يليقُ به.

فالصحبة مع المشايخ والكبراء بالاحترام، والخدمة والتوقير، والقيام بأشغالهم.

والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة، وبذل المعروف والإحسان، والكون معهم على حكم الوقت؛ حكي أن أبا العباس بن عطاء مَدَّ رِجْلَيْه بين يدي أصحابه فقال: تَرْكُ الأدَب بَيْنَ يَدَيْ أهلِ الأدَبِ أدَبٌ. وقال الجنيد: إذا صَحَّت المودةُ سَقطَت شروطُ الأدَب. ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخل عثمانُ رضي الله عنه فَغَطَّى جِسْمَه، وسوَّى ثيابه وجلس، فسُئِلَ عن ذلك فقال «ألا أستحِي مِمَّنْ تستحي منه الملائكة»[٣] فحشمة عثمان رضي الله عنه وإن عظمت فالحالة التي بين رسول الله ﷺ وبينهما أصفى. ولا يداهنهم فيما يخالف المذهب؛ فقد قال رويم: ما زالت الصوفية بخيرٍ ما تَنَافَرُوا، فإذا

(١) هذا الأثر ورد عن ابن المبارك رواه أبو القاسم اللالكائي في اعتقاد أهل السنة، حديث رقم (٢٧٥) [١/١٣٩ ـ ١٤٠].

(٢) رواه أبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة، المؤمن مرآة المؤمن، حديث رقم (٢١٨٥) [٦/١٧٩] وأبو داود في سننه، باب في النصيحة والحياطة، حديث رقم (٤٩١٨) [٤/ ٢٨٠] ورواه غيرهما.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه مقدام، حديث رقم (٨٩٣١) [٨/٣٧٩] وفي الكبير، عن عكرمة، حديث رقم (١١٦٥٦) [١١/ ٢٥٤] وأحمد في المسند من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، برقم (٢٥٢٥٧) [٦/ ١٥٥] ورواه غيرهما.

اصطلحوا هَلكُوا. ويخضع عند الحق ويقابله بالقبول؛ وروي أن عمر رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كانَ في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصَّفا والمَرْوَة، فقال له العباس: قلعتَ ما كان النبي ﷺ وضعه بيده؟ فقال له: إذاً لا يَرُدُّه إلى مكانه غيرُ يَدكَ، ولا يكون لك سُلمٌ غير عاتِق عُمرٍ، فأقام على عاتقه ورَدَّه إلى مكانه.

والصحبةُ مع الأصاغر بالشَّفَقَة والإرشاد والتأديب، والحمل على ما يوجبه حُكْمُ المذهب، ويَدُلهم على ما فيه صلاحُهم لا على ما فيه مُرَادُهم، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه، ويزجرهم عما لا يعنيهم. ألا ترى أنَّ الله تعالى ذمَّ الربَّانيين والأحبار حين تركوا زَجْرَ قومهم عن المنكر بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] الآية.

والصحبة مع الأستاذ باتِّبَاع أمْرِه ونهيه، وهي من حيث الحقيقة خدمة لا صحبة، قيل لأبي منصور المغربي: كم صحبت أبا عثمان؟ قال: خدمته لا صحبته، والقيام بخدمة أستاذه واجبٌ، والصبر تحت حكمه، وترك مخالفته ظاهراً وباطناً، وقبول قوله، والرجوع إليه في جميع ما يعرض له، والتعظيم لحُرمته ومجانبة الإنكار عليه سرًّا وجهراً؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وقيل: الشيخ في قومه كالنبي في أمته.

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألةً من الجنيد فأجاب الجنيد فعارضه في ذلك. فقال: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ٢١] ويكون في صحبته كالصحابة مع النبي ﷺ في تأدبهم بآداب القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرات: ١] وقال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحُجرات: ٢] وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وقال بعض المشايخ: من لم يُعَظِّم حُرمَة من تأدّب به حُرِمَ بركة ذلك الأدب. وقيل: من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يفلِحُ أبداً.

والصحبة مع خادمه بالتَّلَطُّف والدعاء، وترك الإنكار عليه في ما يبدو منه؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمتُ رسول الله ﷺ عَشرَ سنين فما قهرني ولا نَهَرَني ولا قال لشيء فعلتُه لِمَ فَعَلْتَه، ولا لشيءٍ لمْ أفعله لمَ ما فَعلْتَه، وربما كان يخرج معي ويقول: «**يا أبا الأذنين**».

والصحبة مع الغُرَباء بالبشاشة والبشر، وطلاقة الوجه، وحسن الأدب، ورؤية فضلهم؛ حيث أكرموه وخصُّوه من بين أقرانه بالنزول عليه والإلمام به، ثم يبذل

المجهودَ في خدمتهم وإكرامهم، والكون عند مُرَادِهم، والصبر على أحكامهم؛ وقد مدح الله تعالى الذين يحبون من هاجر إليهم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا﴾ [الأنفَال: ٧٢] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [الأنفَال: ٧٢].

والصحبة مع الجهال بجميل الصبر وحسن الخُلق، والمداراة والاحتمال، والنظر إليهم بعين الرَّحمة، ورؤية نعمة الله عليه حيث لم يُقِمه مقامهم، وإن واجهوه بما يكره يَحْلُم عنهم، ولا يجيبهم بأكثر مما أجاب به الأنبياء قومَهُم حين نُسِبُوا إلى الضلالة والسفاهة والجهالة ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعرَاف: ٦١] ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعـــرَاف: ٦٧] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا﴾ [الفُرقان: ٦٣] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القَصَص: ٥٥] ومن كان جهله أقوى كان الحلم عنه أولى؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦]. وشَتَمَ رَجلٌ الشَّعبي فأفحش، فقال له الشعبي: إنْ كُنتَ صَادِقاً فغَفَرَ اللّهُ لِي، وإنْ كُنتَ كَاذِباً فَغَفَرَ اللّهُ لَك. والصحبة مع الأهل والولد بحسن الشفقة عليهم، ومداراتهم وتأديبهم وحثهم على الطاعة؛ قال الله: ﴿قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التّحريم: ٦] في التفسير أي أدِّبوهم وعَلِّمُوهم، وَقُوهُم بذلك مِنَ النَّار. ومع الأهل خاصة على حُكم الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩] والإنفاق عليهم من الحلال بالمعروف. وتُكرَه صحبة الأحْدَاث؛ لما فيها من الآفات، ومن ابتلى بذلك وصحبهم على شرط السلامة، وحفظ قلبه وجوارحه عنهم، وحملهم على الرياضات والتأدب، ومجانبة الانبساط. قال بعض المشايخ: رغبةُ الصغار في صحبة الكبار توفيقٌ وفطنة، ورغبة الكبار في صحبة الصغار خذلان وحُمْق.

والصحبة مع الإخوة بكل ما يَقْدِر عليه من الموافقة وترك المخالفة إلا فيما لا يجوز في الشرع، ومجانبة الحقد والحَسَد، ولزوم ما يَسْلَمُ به بعضُهم من بعض.

والصحبة مع السلطان بالسمع والطاعة إلا في مَعْصيَة الله أو مخالفة سنة؛ قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩] ثم الدعاء له والإمساك عما فيه من قدح؛ روي عن الحسن أنه قيل له: مات الحجاج فقال: رحم الله امرءاً عرفَ زمانه، وحفظ لسانه، وداری سلطانه.

وأما الدخول عليهم فمن كان عادلاً فهو من السَّبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لاَ ظلَّ إلا ظله، والنظر إليه عبادة، ومن كان ظالماً فالبُعْدُ عنه واجبٌ إلا

لمضطرٍّ إليه، أو لناصح ومنكر عليه، إذا عَلِمَ من غَالِبِ حاله أنه يَسْلَمُ عِنْدَ القُرْب منه؛ وحكي أن بعض الخلفاء أراد زيارة بِشْرِ الحافي فبلغ ذلك بشراً الحافي فقال: لئِن ذَكَرَنِي بعد هذا لأخْرُجَنَّ من جِوَارِه ببغداد، فأمسك عنه. وقال بعض المشايخ: من شاركَ السلطان في عِزّ الدنيا شاركه في ذُلّ الآخرة. وقيل تَقَرُّبُ الأشرارِ إلى الأخيار صلاحُ الطائفتين وتقَرُّبُ الأخْيَارِ إلى الأشْرَارِ فِتْنَةُ الطائفتين. ومن اضطر إلى الدخول عليهم دعا لهم بالصلاح وذَكَّرَهم وَوَعَظَهم، وأنكر حسب طاقته. ومن المشايخ من تقرّب إليهم لطلب مصالح الناس. وروي عن زَيْدِ بنِ أَسْلَم أنه قال: كان نبيٌّ من الأنبياء يأخذُ بِرِكَابِ الملك يتألّفه بذلك لقضاء حوائج الناس. وقال ابن عطاء: لأن يُرائي الرجل سنين ليكتسب جاهاً يعيش فيه مؤمناً أنجى له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه، والصحبة مع الكافة كصحبة أبي ضمضم. روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؛ كان إذا أصبح وأمسى يقول: اللهم إني قد وهبت نفسي وعِرْضِي لك، اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك، فمن شتمني لا أشتمه، ومن ظلمني لا أظلمه»**[(١)] قال أبو عبد الله بن خفيف: دخلتُ مَكَّةَ وقصدت أبا عمرو الزجاجي فسلّمتُ عليه، وجلست عنده، وجرى كلامٌ، فأخذ في تمزيقي، فلما أكثر قلتُ له: أتَعْنِي بهذا كله ابن خفيف؟ قال. بلى. قلت: تركته بشيراز فتبسّم. وقال شاه بن الشجاع: من نظر إلى الخَلْق بيمينه طالت خصومته معهم، ومن نظر إلى الخلق بعينه الحَق عذرَهم فيما هُم فيه، وقلّ اشتغاله بهم.

ثم على كل جارحة أدبٌ تختص هي به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦] قال بعض المشايخ: حسن الأدَب مع الله ألا تتحرك جارحةٌ من جوارحك في غير رضاء الله تعالى.

فأدبُ اللسان أن يكون رطباً بذكر الله عزّ وجل أبداً وبذكر الإخوان بالخير والدعاء لهم، وبذل النصيحة والورع، ولا يكلمهم بما يكرهون؛ روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أين أبي؟ قال: **«في النار»**[(٢)] فعرف الكراهة في وَجْهه فقال ﷺ: **«أبي وأبوك وأبو إبراهيم في مَوْضِعٍ واحد»**[(٣)] ولا يغتاب ولا ينمّ، ولا يشتم، ولا يخوض

---

(١) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، حديث رقم (٦٥) [١/ ٦٠] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (١٥٩٤) [١/ ٣٩٥] ورواه غيرهما.

(٢) (٣) رواه بدون لفظ [وأبو إبراهيم في موضع واحد] أبو نعيم الأصبهاني في المسند المستخرج على صحيح مسلم، حديث رقم (٥٠٣) [١/ ٢٧٥] ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

فيما لا يعنيه، وإذا كان في جماعةٍ تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك. ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال؛ فقد قيل: لكلِّ مَقَامٍ مقال وقيل: خلق الله اللسان ترجماناً للقَلْبِ ومفتاحاً للخير والشر. وقيل: إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك. ويلزم الصمتَ فإنه سترٌ للجاهل، وزين للعاقل؛ قال النبي ﷺ: **«وهَلْ يكب الناس في النار عَلَى مناخرهم إلا حصائِدَ ألسنتهم»**[١].

وأدب السمع ألا يسمع إلى الفُحْش والخنا، والغيبة والنميمة وكل منكر. كما قيل:

أُحِبُّ الفَتَى يَنْفِي الفَوَاحِشَ سَمْعُه ... كَأنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقْرَا[٢]

بل يستمع إلى الذِّكْرِ والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة ديناً ودنيا، ويُحْسِن الإصغاء إلى مَن يكلِّمه.

وأدب البصر الغَضُّ عن المحارم وعن عيوب الناس والإخوان، والمنكرات والمحرمات، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩] وقد قيل: من طاوع طَرْفَه تَابع حَتْفَه. وقيل: من غضَّ طرفَه تَمَّ ظُرْفه. وقيل: من كثرت لحظاتُه دامت حَسَراتُه. ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته، وجميل صنعه عارياً من حظوظ النَّفس الأمَّارة بالسوء، حكي عن بعضهم أنه قال: نظَرت إلى شخصٍ نظرةَ شهوة فرأيتُ في المنام قائلاً يقول لي: إن الله تعالى يقول: الدُّنيا داري، والخلائق فيها عَبِيدِي وإمائي، فمن نظر إلى واحد منهم بغير حقٍّ فقد خانَني. فانتبهتُ، وآليت على نفسي أن لا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا على حَدِّ الأمانة. وحكي عن أبي يعقوب النَّهرَجُورِي أنه قال: رأيتُ في الطَّوافِ إنساناً بِفَرْدِ عَيْنٍ وهو يقول: أعوذُ بِكَ مِنْكَ، فقلت: ما هذا الدعاء؟ فقال: اعْلَمْ أني مجاورٌ منذ خمسين سنة فرأيت يوماً شخصاً فاستحسنْتُه فإذا لطمةٌ وقعت على عيني

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (٣٥٤٨) [٢/٤٤٧] والنسائي في سننه الكبرى، قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حديث رقم (٣٣٩٤) [٦/٤٢٨] ورواه غيرهما.

(٢) هذا البيت من قصيدة بلغت عشرة أبيات من البحر الطويل للشاعر العباسي أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، من طبقة بشار بن برد وأبي نواس، كان يجيد شعر الزهد والمدح، ولد سنة ١٣٠هـ ونشأ قرب الكوفة وسكن بغداد وتوفي سنة ٢١١هـ.

فسالت عيني هناك على خدي، فقلت: آه فقيل: لحظةٌ بلطمةٍ ولو زِدْتَ لَزِدْنَاك. وقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**إيَّاك أن تُتبِع النظرة النظرة؛ فإن الأولى لك والثانية عليك**»[١].

وأدب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة، ونفي الخواطر الردية المذمومة، والتفكُّر في آلاء الله ونعمائه، وعجائب خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] وقال رسول الله ﷺ: «**تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عِبادةِ سَنَةٍ**»[٢] ومن أدب القلب حسن الظَّنّ بالله تعالى وبجميع المسلمين، وتطهيره من الغلّ والغشّ والحَسَد والخيانة وسوء العقيدة؛ فإنها من جنايات القلب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال النبي ﷺ: «**ألاَ إنَّ في الجسد مُضغَةً إذا صَلُحَت صَلُحَ بِصَلاَحِهَا سائرُ الجسد، وإذا فَسَدَت فَسَد بِفَسَادِها سائرُ الجسد، ألاَ وَهِيَ القلب**»[٣] وقال سري بن المغلس السقطي: القلوب ثلاثة: قلب كالجبل لا يحركه شيء، وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح تميل بها يميناً وشمالاً، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت.

وأدب اليدين البسطُ بالبِرّ والإحسان، وخدمة الإخوان، وألا يستعين بها على مَعْصِيَة.

وأدب الرجلين السعيُ بهما في صلاح نفسه وإخوانه، وألا يمشي في الأرض مرحاً ولا يختال ولا يتبختر ولا يزهو؛ فإنها مما تُبَغِّضُه إلى الله تعالى، ولا يستعين بهما على المعاصي.

ثم إن أول الصحبة معرفةٌ، ثم مودةٌ، ثم إلفَة، ثم عِشْرَة، ثم محبة، ثم صحبة، ثم أُخُوَّة. وقيل: غذاء النفوس في العشرة، وغذاء القلوب في الصُّحبة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، حديث رقم (٢٧٨٨) [٢/٢١٢] بلفظ: عن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**يا علي لا تُتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**» ورواه أبو داود في سننه، باب ما يؤمر به من غض البصر، حديث رقم (٢١٤٩) [٢/٢٤٦] ورواه غيرهما.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حرف المثناة الفوقية، حديث رقم (١٠٠٤) [١/ ٣٧٠] والهروي في المصنوع [١/٩٣] وأورده غيرهما.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢) [١/٢٨] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩) [٣/١٢١٩] ورواه غيرهما.

والصحبة لا تكون إلا باتفاق البواطن؛ قال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحَشر: ١٤].

والصحبة إذا صحت شرائطها فإنها أجلُّ الأحوال، ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أجلَّ الناس عِلْماً وفِقْهاً وعبادة وزهداً وتوكلاً ورضا، فلم يُنْسَبُوا إلى شيء من ذلك غير الصحبة التي هي أعلاها. ومن آدابهم ألا يجري في حديثهم هَذَا لي وَهَذَا لَكَ، ولو كان كذا لم يكن كذا، ولعل وعسى، ولِمَ فعلتَ، ولِمَ لا تفعل، وما يجري مجراها؛ فإنها من أخلاق العوام، قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول فِعْلي، ولا تَجْرِي بينهم الإعارة والاستعارة. وقال بعضهم: الصوفي لا يُعير ولا يَسْتَعِير ولا تجري بينهم المخاصمة ولا المجادلة، ولا الازدراء، ولا المزاحمة والمغالبة، والغيبة والوقيعة والنقيصة والاستهزاء، بل يكون كل أحد منهم للكبير كالولد، وللنظير كالأخ، وللصغير كالوالد وللأستاذين كالمملوك.

ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم ليكون مرجعهم إليه، واعتمادهم عليه، ويكون أرجحهم عقلاً، ثم أعلاهم همة، ثم أعلاهم حالاً ثم أعلمهم بالمذهب، ثم أسنهم. قال رسول الله ﷺ: **«لِيَؤُمَّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن استووا فأفقهُهُم في الدين، فإن استووا فأشرفهم، فإن استووا فأسنُّهم، فإن استووا فأقدمهم هجرة»**(١) وكان ﷺ يقدِّمُ أهلَ بدر على غيرهم؛ روي أنه كان جالساً في صُفَّةٍ ضيقة فجاء قومٌ من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فأقام النبيُّ ﷺ من لم يكن من أهل بدر من ذلك المجلس فجلسوا مكانهم، فاشتد عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ [المجَادلة: ١١] ثم أحسنهم خلقاً، ثم أقدمهم هجرَةً، ثم أتمهم أدباً، ثم أسبقهم بلقاء المشايخ؛ حكي أن علي بن بُنْدَار الصَّيْرَفِي وَرَدَ عَلَى أبي عبد الله بن خفيف زائراً له من نَيسَابُور فتماشيا، فقال له أبو عبد الله: تقدَّم، فقال: بأيِّ عُذْرٍ؟ قال: بأنك لقيت الجنيد وما لقِيتُه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب من أحق بالإمامة، حديث رقم (٦٧٣) [١/ ٤٦٥] ونصه: عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلماً ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه»** وروي بألفاظ أخرى متقاربة: قال الأشج في روايته مكان سِلماً سِنًا، ورواه غيره.

ويخدمهم أصدقهم نية وشفقة، وأحلمهم وأقواهم قلباً، وأكثرهم ديانة وأمانة وصيانة، وأَقَلُّهم اهتماماً بنفسه وذويه؛ فالخدمة الدرجة الثانية من الشيخوخة كما ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ القَوْمِ خادِمهم»(١) وقيل: إذا صحبت إنساناً فانظر عقلَه أكثر مما تنظر دينه؛ فإن دينه له وعقله له ولك، ولا تصحب من كان أكثر هَمِّه الدنيا والنفس والهوى؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم: ٢٩]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا يذكر عيوب الناس؛ فقد قيل: من ذكر عيوب الناس شهد على نفسه؛ فإنما يذكر مقدار ما فيه منها.

سُئِل أبو عثمان الحيري عن الصحبة فقال: توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله، وتنصفه من نفسك، ولا تطلب الإنصاف منه، وتكون تَبَعاً له، ولا تطلب أن يكون تبعاً لك، وتستكثر ما إليكَ منه، وتَسْتَقِلُّ ما مِنْك إليه. قال داود الدُّقِّيُّ: قلت للزقاق: من احتجب؟ فقال: من يعلم منك مثل ما يعلم الله ثم تأمنه على ذلك. وقال بعضهم: ما أوقعني في البلاء إلا صحبة من لا أحتشمه. وقيل: ليس في اجتماع الإخوان أنسٌ لوحشة الفراق. وقيل: الشرف في ثلاث: إجلال الكبير، ومداراة النظير. ورفع النفس عن الحقير. وقيل: الجلساء ثلاثة: جليس تستفيد منه فلازمه، وجليس تُفيدُه فأكرمه، وجليس لا تستفيد منه ولا تفيده فاهرب منه.

ومن آدابهم ترك التِّيه والصَّوْلَة، قال أبو علي الرُّوذَبَارِيُّ: الصولة علىٰ مَنْ فَوْقَكَ قحةٌ، وعلى من هو مثلك سوءُ أدب، وعلى من دونك عجزٌ. وقال بعضهم: من ولي ولاية فَتَاه فيها أَخْبَرَ أَنَّ قَدْرَهُ دُونَها. ومن تواضع فيها أخبر أن قدره فوقها. وقيل: إن عجب المرء بنفسه حَدُّ فساد عقله؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

وليحذر المتأدب أن يَحْقِرَ أحداً من المسلمين؛ فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حسب امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يحقر أخاهُ المسلم»(٢) وقال ﷺ: «من استذلَّ مؤمناً أو

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٤٧٣) [٢/ ٣٢٤] والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٥١٥) [١/ ٥٦١] وأورده غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم..، حديث رقم (٢٥٦٤) [٤/ ١٩٨٦] وأبو داود في سننه، باب في الغيبة، حديث رقم (٤٨٨٢) [٤/ ٢٧٠] ورواه غيرهما.

مؤمنة أو حقَّرَه لفقرِه وقلّة ذات يَدِهِ شَهَّرَه الله يوم القيامة ثم يفضحه»[١]. وقال بعضهم: من رضي به الله عبداً فارضَ به أخاً. وإذا نزل به أحد من إخوانه أو جماعة قدّم إليهم ما حضره من الطعام والشراب قَلَّ أو كَثُر؛ روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«هَلاكُ المرءِ أنْ يَدْخُلَ عليهِ الرجلُ من إخوانه فيحقر ما في بيته أن يُقدِّمَه إلَيه، وهلاك القَوْمِ أن يَحقرُوا مَا قُدِّم إليهم»**[٢] وقال ﷺ: **«إنَّ مِن مَكَارِمِ الأخلاقِ التَّزَاوُرَ في الله، وحقٌّ على المَزُورِ أن يُقرِّبَ إلَى أخيه ما تَيسّر عنده، وإن لم يجد إلا جرعة من ماء؛ فإن احتشم أن يُقرِّب إليه ما تَيسر لم يزل في مَقْتِ الله تعالى يومَه وليلته»**[٣] ألا ترى أن إبراهيم ﷺ لما دخل عليه ضيفه المُكْرَمُون ما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ فقرَّبه إليهم قالَ ألاَ تأكلون؛ حُكِيَ أن الحسن البصري كان إذا استأذن عليه بعضُ إخوانه إنْ كَانَ عنده طعامٌ أذن لهم وإلا خرج إليهم ولا يتكلف فيما حضر؛ فقد رُوي عن أبي البختري أنه قال: نزلنا على سلمان بالمدائن فقرّب إلينا خبزاً وسمكاً وقال: كلوا؛ نهانا رسول الله ﷺ عن التَّكَلُّف، ولولا ذلك لتكلفت لكم. ولَمَّا وَرَدَ أبو حفص على الجنيد تكلّف في خدمته، فأنكر عليه وقال: لو دخلت خراسان علمناك الفتوة. فقيل له في ذلك فقال: صيّر أصحابي مجانين، يقدم إليهم ألوان الطعام واللباس والطيب كل يوم وإنما الفتوة عندنا تَرْكُ التكلّف وإحضار ما حضر.

ثم إذا حضرك الفقراء فاخدمهم بلا تكلف حتى إذا جعت جاعوا وإذا شبعت شبعوا حتى يكون مقامهم وخروجهم عندك سواء. قال يوسف بن الحسين: قلت لذي النون: من أصحب؟ قال: من إذا مرضتَ عادكَ، وإذا أذنبت تاب لك. وأنشد:

إذَا مَـرِضْـنَـا أَتَـيْـنَـاكُـم نَـعُـودُكُـم   وَتُـذْنِـبُـونَ فَـنَـأْتِـيـكُـمْ فَـنَـعْـتَـذِرُ[٤]

وقيل: ليس بصاحبٍ من تقول له قم. فيقولَ: إلى أين.

---

(١) أورد الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٥٩٠٤) [٣/٦٠٨] ولفظه: **«من استذل مؤمناً أو حقره لفقره وقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم فضحه»**.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يحتقر ما قدم إليه، حديث رقم (١٤٤٠١) [٧/ ٢٧٩] وأحمد في المسند، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (١٥٠٢٧) [٣/ ٣٧١] ورواه غيرهما.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) هذا البيت هو أحد بيتين من البحر البسيط للشاعر العباسي إسحاق الموصلي أبو محمد بن النديم من أشهر ندماء الخلفاء، تفرّد بصناعة الغناء وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام له تصانيف عدة منها: (كتاب أغانيه) التي غنّى بها، و(الاختيار من الأغاني) و(جواهر الكلام) ولد سنة ١٥٥هـ وتوفي سنة ٢٣٥هـ.

ويجتنب البذاء فإنه يهيج البغضاء، قال الله عزّ وجل: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عِمرَان: ١١٨].

وقال بعضهم: الناس ثلاثة أصناف: صنف كالغذاء لا يُسْتَغْنَى عنهم، وصنف كالدواء يُحْتَاجُ إليهم في الأحايين، وصنف كالدَّاء يجب الاحتماء منهم، ومما يقرب منهم.

ويجتنب صحبة الأشرار؛ فقد قيل: مُصاحَبَةُ الأشرار خطرٌ، ومن صاحبهم فقد بالغ في الغَرَر، وإنما مَثَلُه كمثل راكب البحر إن سلم ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر. وقيل: من أكمل السعادة والرَّشَادِ صيانةُ الحُرِّ نَفْسَه عن الأوغاد وقيل: من يصحب صاحب سوء لم يسلم، ومن يدخل مدخل سوء يُتَّهَم. وقيل: كل واحد يُعْرَفُ بِقُرنائِه، وينسب إلى خُلَطَائِه. وروي أنه وقَفَ النبي ﷺ على قوم فقال: **«ألاَ أُخبِرُكم بِخَيْرِكم مِن شَرِّكُم؟ خيرُكم مَن يُرْجَى خَيْرُه، ويُؤْمَنُ شَرُّه؛ وشركم مَن لا يُرْجَى خيرُه ولا يُؤْمَن شرُّه»**[(١)].

* * *

فصـل
في ذكر آدابهم في الأسفار وفضلها

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧] سئل النبي ﷺ: مَنْ هُمْ؟ فقال: **«هُم الذين يَضرِبُونَ في الأرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله»**[(٢)] وقال النبي ﷺ: **«سَافِرُوا تصِحُّوا وتَغْنَمُوا»**[(٣)] وقال: **«الغريب شهيد، ويُفْسَحُ للغريب**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن من خير الناس من رجي خيره وأمن شره، حديث رقم (٥٢٧) [٢/ ٢٨٥] وذكر الإخبار عن خير الناس..، حديث رقم (٥٢٨) [٢/ ٢٨٦] والترمذي في سننه، باب (٧٦) حديث رقم (٢٢٦٣) [٤/ ٥٢٨] ورواه غيرهما.

(٢) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٢٨٤) [٢/ ٢٧٧] ورقم (٧٥١٢) [٥/ ٧٩] وأبو بكر القرشي في إصلاح المال حديث رقم (٢٠٥) [١/ ٧١] ورواه غيرهما.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ [النور: ٣٢] حديث رقم (١٣٣٦٦) و(١٣٣٦٧) [٧/ ١٠٢] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، سافروا تصحوا..، حديث رقم (٤٠٣). ورواه غيرهما.

في قَبْرِه كَبُعْده عن أهله»[١] وقال أبو حفص النّيسابوري: ينبغي للمسافر ثلاثة أشياء: تركُ تدبير الزَّاد، وتقدير الطريق، ويعلم أن الله حافظه.

وأفضل السّفر الجهادُ، ثم الحج، ثم زيارة قبر النبي ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: «**وَفْدُ الله ثلاثة: الحاج، والغازي، والمُعتمر ثم زيارة المسجد الأقصى**»[٢] قال رسول الله ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثلاثة مواضع: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[٣].

ثم لطلب العلم، ثم لزيارة المشايخ والإخوان؛ قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: حَقتْ محبتي للمُتَحَابِّينَ فِيَّ والمُتَزَاوِرِين**»[٤] وفي الحديث عن أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «**زُرْ فِي اللهِ فَإنّ مَن زَارَ في الله شيَّعهُ سَبْعُون ألف مَلَك يقولون: اللهم صِلْهُ كَمَا وصَلَهُ فِيكَ، وناداه منادٍ أنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأتَ مِنَ الجنة مَقْعَداً**»[٥].

ثم لِرَدِّ المظالم والاستحلال، ثم لطلب الآثار والاعتبار، ثم لرياضة النفس وخمول الذكر، ولا يسافر للنزهة والبطر والرِّياء والجَوَلاَن في البلاد لطلب الدنيا على متابعة الهوى؛ قال أبو تراب النَّخْشبي: ليس شيء أضرّ على المريدين من أسفارهم على متابعة هواهم، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار الباطلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]

---

(١) أورده العجلوني في شطره الأول: «الغريب شهيد» حديث رقم (٢٦٦٥) [٢/ ٣٨٢] في سياق تعليقه على حديث: «**موت الغريب شهادة**».
وأورده الديلمي في شطره الثاني، في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٩٠٠٨) [٥/ ٥٣٦].

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، حديث رقم (٣٦٩٢) [٩/ ٥] وابن خزيمة في صحيحه، باب فضل الحج. . ، حديث رقم (٢٥١١) [٤/ ١٣٠] ورواه غيرهما بدون: «ثم زيارة المسجد الأقصى».

(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم (١١٣٢) [١/ ٣٩٨] ومسلم في صحيحه، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، حديث رقم (١٣٩٧) [٢/ ١٠١٤] ورواه غيرهما.

(٤) رواه الهيثمي في موارد الظمآن، باب في المتحابين لله، حديث رقم (٢٥١٠) [١/ ٦٢١ ـ ٦٢٢] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (١٤٤٩) [٢/ ٣٢٢] ورواه غيرهما.

(٥) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن أبي هريرة، برقم (٣٣٤٥) [٢/ ٢٩٥] والعجلوني في كشف الخفاء، حرف الزاي، حديث رقم (١٤١٣) [١/ ٥٢٩].

وقال النبي ﷺ: **«يأتي علَى النَّاسِ زَمَانٌ يَحُجُّ أغنياء أُمّتي للنُّزْهَةِ وأوسَاطُهُم للتِّجَارة؛ وقُراؤُهُم للرِّيَاء، وفقراؤهم لِلْمَسْألةِ»**(١) وقال عمر رضي الله عنه: ألا إن الوَفْدَ كَثِيرٌ والحاجُّ قليل.

ولا يسافر بغير رضى الوالدين والأستاذ، ولا بغير إذنهم حتى لا يكون عاقًّا في سفره؛ فلا يجد بركات أسفارهم، وإذا كان في جماعة مَشَى مَشْيَ أضعفهم، ووقف لوقوفِ الرفيق، ولا يؤخر الصلاة عن أوقاتها ما أمكن، ويؤثر المَشْيَ على الركوب إلا عند الضرورة، فإن سفره للرياضة وطلب الزيارة؛ روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«للحاج الراكب بكلِّ خطوة تَخْطُوهَا راحلتُه سبعون حسنة، وللراجل بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم»** قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: **«الحسنة بسبعمائة ألف حسنة»**(٢) وروي: أن الملائكة تعانق الرَّجَّالة في طريق مكة، وتصافح أصحاب الزوامل، وتسلّم من بعيد على أصحاب المحامل.

وإذا كان في جماعة بذل جهده في خدمتهم ما أمكن ويرفع عنهم مؤونته؛ فقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الصدقات أفضل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **«خدمة الرجلِ أصحابَه في سبيل الله»**(٣).

ومن آدابهم إذا دخل بلداً فإن كان فيه شيخ قصد زيارته، وإن لم يكن قصد موضع الفقراء، وإن كان فيها مواضع قصد أقدمها وأكثرها جمعاً، وأعظمها حرمة، ويتفقد موضع الطهارة خصوصاً، والمياه الجارية فيه فيؤثر النزول عليها دون غيرها؛ وإن لم يكن لهم موضع ولا جمع نزلَ على أكثرهم محبة لهذه الطائفة وأكثرهم إيماناً بهم وميلاً إليهم، وإذا دخل دُوَيْرة تنحّى ناحية ونزع خفَّيه، يبدأ باليسرى في النزع وباليمنى في اللبس. فقد قال النبي ﷺ: **«إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا نزع فليبدأ باليسار»**(٤) ثم يقصد موضع الطهارة ويتوضأ، ثم يصلي ركعتين، وإن كان هناك

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أنس بن مالك برقم (٨٦٨٩) [٥/ ٤٤٤] وابن الجوزي في العلل المتناهية برقم (٩٢٧) [٢/ ٥٦٤] وأورده غيرهما.

(٢) رواه باختلاف بسيط في لفظه أبو عبد الله محمد المقدسي في الأحاديث المختارة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس برقم (٤٧) [١٠/ ٥٤] والطبراني في المعجم الكبير، عن ابن عباس برقم (١٢٥٢٢) [١٢/ ٧٥] ورواه بلفظه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن ابن عباس برقم (٧٨٩) [١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧].

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب ينزع نعله اليسرى، حديث رقم (٥٥١٧) [٥/ ٢٢٠٠] والبيهقي في السنن الكبرى، باب السنة في لبس النعلين وخلعهما، حديث رقم (٤٠٦٠) [٢/ ٤٣٢] ورواه غيرهما بألفاظ متقاربة.

شيخ مقصود قصده وزاره، وقبّلَ رأسه إلا أن يكون حدثاً فيقبّل يده، روي عن كعب بن مالك أنه قال: لما نزلت تَوْبَتِي أَتَيْتُ النبي ﷺ فَقَبَّلْتُ يدَه، وحُكِيَ أنّ أبا عبد الله بن خفيف قبّل يَد الحسين بن منصور وهو في الحبس، فقال: لو كانت اليد يدنا لمنعناك ولكن اليد يد تبوسها اليوم وتقُطع غداً.

ثم يجلس عند الشيخ ساعة ولا يتكلم إلا أن يسأله عن شيء فيجيبه عن سؤاله، ولا يبلغه سلاماً ولا يذكر أحداً إلا أن يكون نظيراً له في الحال أو السِّنّ فيجوز ذلك، ثم يرجع إلى موضعه. وعلى المقيمين أن يسلّموا عليه؛ فحقُّ القادم أن يُزارَ إلا أن يكون بمكة فإن عليه زيارة المجاورين لحرمة الحرم، ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف؛ فقد قيل: الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام، ثم بالإكرام ثم بالطعام، ثم بالكلام؛ كصنع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع ضيفه الكرام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هُود: ٦٩].

ولا يسأل عن أحوال وأخبار الدنيا وأهلها مما لا يعنيه، بل عن أحوال المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير.

ويجب على المسافر استصحاب ركوَة أو كوز للطهارة أوْلى؛ قيل كان بعض المشايخ والأصحاب والإخوان إذا صافحه المسافر تفقد حمل الركوة في كَفِّه وأصابعه، فإن وجده أحسنَ قبوله وإلا ازدراه ورده، وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفي وليس معه ركوة ولا كوز فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة شاء أو أبى.

ويستحب للمسافر استصحاب العصا والإبرة والخيط والمقص والموسى ونحوها؛ فإن ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب.

وإذا أراد السفر فمن الأدب أن يطوف على إخوانه ويعرفهم خروجه ويودعهم، ويستحب لمن هو في صحبتهم تشييعه؛ كذا كان دأب المشايخ.

ويجتهد ألا يفوته شيء من الأوراد وخاصة الواجبات؛ قال أبو يعقوب السّوسي: يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره وإلا فلا يسافر: علم يسوسه، وورع يحجزه، وخُلُق يصونه، ويقين يُجَمِّلُهُ. وسئل رُوَيْم عن أدب المسافر فقال: لا تسبق همته خطوته وحيثما وقف قلبه يكون منزله.

* * *

فصــل
في ذكر آدابهم في اللباس

قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدَّثِّر: ٤] قال بعض المفسرين: أي فقصّر. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يحب كل مَتَبَذِّل لا يبالي ما لبس**»(١) وكان عمر رضي الله عنه يقطع من كُمِّه ما جاوز الأصابع. وقال بعضهم: الفقير الصادق أي شيء لبس يَحْسُن عليه، ويكون له فيه الملاحة والمهابة.

ومن آدابهم في ذلك أن يكونوا مع الوقت يلبسون ما يجدون من غير تَكَلُّف ولا اختيار، ويقتصرون على ما يؤدون به الفرض من ستر العورة، ما يدفع القرّ والحرّ، فهي ما اسْتَثْنَى النبيّ ﷺ من الدنيا وقال: «**إنها ليست من الدنيا**»(٢) ويتبرمون بكثرة اللباس، ويواسون بالفضل؛ قال النبي ﷺ: «**ثلاثةٌ يدخلون الجنة بغير حساب: رجل غسل ثوبه فلم يجد خَلَفاً، ورجل لم يُنصَب له على مستوقدة قدران، ورجل دعا بشراب فلم يُقَل له أيها تريدُ**»(٣). وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما أعدّ رسول الله ﷺ من شيء زوجين.

ويجتهدون في النظافة والظرافة؛ قال النبي ﷺ: «**النَّظَافَةُ من الإيمان**»(٤) ورأى عَلَى بعض الوفود ثوباً وسخاً فقال: «**مَا كَانَ هَذَا يَجِدُ ماءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَه**»(٥) وقال ﷺ: «**هَبْ أنّ الفقر مِنَ الله فما بال الوسخ من الثياب**»(٦) وقال ﷺ: «**إنّ الله يبغض الوسخ**»(٧)

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) رواه الدينوري في القناعة، عن أبي هريرة برقم (٤٧) [١/٦٩].

(٤) لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع، وإنما الذي ورد: «الطهور شطر الإيمان» رواه مسلم، باب فضل الوضوء، حديث رقم (٢٢٣) [١/٢٠٣] ورواه غيره.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالإحسان إلى الشَّعر..، حديث رقم (٥٤٨٣) [١٢/٢٩٤] وأبو داود، باب في غسل الثوب..، حديث رقم (٤٠٦٢) [٤/٥١] ورواه غيرهما.

(٦) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في كراهية الوسخ في الثوب، حديث رقم (٦٢٢٤).

ويكرهون لبس الشهرة من الثياب؛ ويتبركون بثياب المشايخ؛ روي أن رسول الله ﷺ دخل بعض بيوته مع أصحابه فامتلأ البيت وجاء جرير بن عبد الله البَجَلي فلم يجد موضعاً وقعد خارج البيت، فأبصره النبي ﷺ فأخذ بعض ثيابه ولفه ورمى به إليه. وقال: «**اجلس على هذا**». فأخذ جرير الثوب ووضعه على وجهه وقبّله. واختار بعضهم الاقتصار على خرقتين كهيئة المُحْرم. وكره الجمهور منهم ذلك إلا للمُحْرِم أو بمكة لما فيه من الشهرة، وإظهار الزيادة على الأقران.

ويكره لبس الفرجيّة أيضاً إلا للمشايخ، فإنه بمنزلة الطيلسان والسجادة والقلانس للمشايخ والبرانس للمريدين. ويستحب الاقتصار على ثوب واحد؛ حكى الجريري قال: كان ببغداد فقير لا نَكاد نجده إلا في ثوب واحد شتاءً وصيفاً، فسئل عن ذلك فقال: كنت مولعاً بِكَثْرَة الثياب، فرأيت في المنام كأني دخلت الجنة فرأيت جماعةً من أصحابنا على مائدة، فقصدتهم فحال بيني وبينهم ملائكة وقالوا: هؤلاء أصحاب ثوب واحد ولك أثواب، فانتبهت ونذرت ألا ألبس إلا ثوباً واحداً إلى أن ألقى الله تعالى. وقيل للجنيد: قد كثرت المرقعات، فقال: لأن طلاب السلوك يرونكم بأبصارهم وأنتم في السير مع الله تعالى. وكان أبو حاتم العطار إذا رأى أصحاب المرقعات يقول: يا سادتي نشرتم أعلامكم، وضربتم طبولكم فليت شعري في اللقاء أي رجال تكونون. وقال علي بن بُنْدَار: ثوب أستجيز فيه الصلاة أكره أن أبدله للقاء الناس بخير منه. وقال أبو حفص الحداد: إذا رأيت ضوء الفقير في ثوبه فلا ترجُ خيره.

* * *

فصل
في ذكر آدابهم في الأكل

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] والإسراف حرام، وقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

قال بعضهم: أدّب الله تعالى عباده ألا يطعموا الفقير إلا مما يأكلون، وقال النبي ﷺ: «**إذا أكَلَ أحَدُكم فليقلْ بسم الله، فإن نَسِيَ في أوله فليقل إذا ذَكَرَ بسم الله**

أوله وآخره»[١] وقال ﷺ وأشار إلى القصعة: **«كلوا من حواليها ولا تأكلوا من وسطها؛ فإن البركة تنزل في وسطها»**[٢].

ومن آدابهم: ترك الاهتمام بالرزق وقلة الاشتغال بطلبه وجمعه ومنعه وإدخاره، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العَنكبوت: ٦٠] أي لا تدخروا، وصحّ عن النبي ﷺ أنه ما كان يَدَّخِرُ شيئاً لغد. ولا يكثر ذكر الطعام؛ فإن ذلك من الشَّرَهِ. حكي عن رُوَيم أنه قال: لم يخطر ببالي ذكرُ الطعام عشرين سنة حتى يحضر. ويقصد عند تناوله سَدَّ الجَوْعة ويعطي النفس حقها دون حظِّها؛ فإن النبي ﷺ قال: **«إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقاً فإن منعتها حقها ظلمتها»**[٣] وقيل لبعض المشايخ: كيف يتناول القومُ الطعامَ؟ فقال: تناول العليل للدواء يرتجي به الشفاء. ويمنعها من الشَّرَهِ والنَّهَمِ مراعياً لقوله ﷺ: **«ما مُلِيء وعاءٌ شر من بطن ابن آدم فإن كان لا بُدَّ فثلثٌ للطعام، وثلثٌ للشراب، وثلثٌ للنَّفَس»**[٤] وقيل: أكل الطعام لغير القوام كانَ انتفاعه به السقام.

ولا يعيبُ طَعَاماً ولا يمدحه؛ روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: ما عابَ رسولُ الله ﷺ طعاماً قط، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه. وقال ﷺ: **«أذيبوا طعامَكم بذكرِ الله تعالى والصلاة، ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم»**[٥].

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب إكرام الكريم، [٨/ ١٥] وعبد الله القرشي في مكارم الأخلاق، إكرام النفس بطاعة الله، حديث رقم (٧١) [١/ ٣٤] وأورده غيرهما.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأطعمة، حديث رقم (٧٠٨٧) [٤/ ١٢١] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قول المرء بسم الله في أوله. . ، حديث رقم (٥٢١٣) [١٢/ ١٢] ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو عبد الله محمد الحنبلي المقدسي في الأحاديث المختارة، من حديث عطاء بن السائب بن زيد الثقفي الكوفي عن سعيد بن جبير، برقم (٢٦٥) [١٠/ ٢٥٢] والنسائي في السنن الكبرى، الأكل من جوانب الثريد برقم (٦٧٦٢) [٤/ ١٧٥] ورواه غيرهما.

(٤) رواه ابن ماجه في سننه، باب الاقتصاد في الأكل. . ، حديث رقم (٣٣٤٩) [٢/ ١١١١] ولفظه: **«ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»**.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٦٠٤٤) [٥/ ١٢٤] أورده السيوطي في جامع الأحاديث والمراسيل، حديث رقم (١٩١٩) [١/ ٢٨٢] وأورده غيرهما.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود ﷺ: **«ما بال الأقوياء ومبادرتهم الشهوات، إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي، إن القلوب المُعَلَّقة بالشهوات عقولها محجوبة عني»**(١).

حكي أن بشر بن الحارث رئي في السوق، فسئل عن ذلك فقال: إن نفسي تطالبني منذ سنين بخيارة فمنعتها، ورَضِيَتْ الآن بالنظر إليها فأعطيتها.

ولا يكون لأكلهم وقتٌ معلومٌ، ولا يتكلّفون ولا يختارون الكثير الرديء على القليل النظيف الطيب؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩] ولا يلقم بعضهم بعضاً، وإذا حضر الطعامُ فلا يقول بعضهم لبعض: كل؛ فإن الكل فيه سواء إلا المشايخ لمن دونهم على سبيل البسط لهم وترغيبهم في الخير عند احتشامهم؛ هذا لهم خاصة، وأما غيرهم من طبقات الناس فمن أدبهم عرضُ الطعام عند الحضور، واستدعاء الحاضرين إليه؛ سمعت والدي رحمه الله يحكي عن الشيرواني رحمه الله أنه قال: كان عبد الله بن الصامت من المشايخ، وكان لا يدعو أحداً إلى الطعام، فحضرت يوماً عنده فقلت: العلم يدعونا إلى عرض الطعام عند الإحضار. فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] فسكت.

ولا يأكلون إلا مما يعرفون أصله، ويتنزهون عن أكل طعام الظلمة والفسقة وإن كان من وجهه؛ رَوَى عمران بن الحصين قال: نهانا رسول الله ﷺ عن إجابة طعام الفاسقين. وينصرفون عن قبول إرفاق النسوان وأكل طعامهن، ولا يكرهون الكلام عند الطعام؛ فقد قيل: إن ترك ذلك من فعل المجوس.

ثم من الأدب عند تناول الطعام التشمر، والجلوس على الرجل اليُسْرَى، والتسمية، والأكل بثلاث أصابع، ومما يليه، وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، ولَعْق الأصابع؛ قال جابر: أمرنا رسول الله ﷺ بِلَعْق الأصابع والقصاع. وقال: «**إن أحدكم لا يدري في أي طَعامه البركة**»(٢).

---

(١) روى نصفه الثاني أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، عن كعب الأحبار [٥/ ٣٨٢] ونصه: إن جبريل أتى آدم عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول لك أنه ولدك عن أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني..، ورواه أبو القاسم علي بن عبد الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق عن كعب الأحبار [٧/ ٤٣٠].

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب لعق الأصابع..، حديث رقم (٢٠٣٣) [٣/ ١٦٠٦] والنسائي في السنن الكبرى، العلة في اللعق، حديث رقم (٦٧٧٧) [٤/ ١٧٩] ورواه غيرهما.

ويترك النظر إلى لقمة صاحبه، روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يُتْبِعَنَّ أحدُكم بصره لقمة صاحبه بالنظر، وإذا فرغ من الطعام قال: الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا»**(١).

وليس من الظرافة أن يغمس يدَه في الطعام بحيث يتلطخ به. ويكره الأكل في اليوم مرَّتَيْن. وقال بعض المشايخ: الأكل مع الإخوان بالانبساط ومع الأجانب بالأدب، ومع الفقراء بالإيثار. وقال الجنيد: مؤاكلة الإخوان رضاع، فانظروا من تؤاكلون.

ويختارون الاجتماع على الأكل؛ لقوله ﷺ: **«خَيرُ الطعام ما كثرت عليه الأيدي»**(٢) وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: **«الأكل مع الإخوان شفاء»**(٣) وقال ﷺ: **«شَرُّ الناس من أكل وَحدَه، وضَرَب عَبْدَه، ومَنَع رِفْدَه»**(٤). وإذا أكل مع جماعة لا يُمْسِكُ عن الأكل ما داموا يتناولونه لا سيما إذا كان متقدمهم؛ روي أن النبي ﷺ كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلاً. وسئل بعض المشايخ عن الأكل الذي لا يضر قال: أن تأكل بالأمر لا بالهوى. وقال إبراهيم بن شيبان: منذ ثلاثين سنة ما أكلت شيئاً بشهوتي.

* * *

فصل
أكثر الناس شبعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة

روي أن رجلاً تَجَشَّأ عند النبي ﷺ فقال: **«كُفَّ عنَّا جَشأكَ، فأكثرهم شبَعاً في**

---

(١) عزا القزويني في التدوين في أخبار قزوين القسم الثاني من هذا الأثر إلى الخليفة المأمون [٤/ ٣] وكذلك فعل الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [١٠/ ١٩٠] وأما القسم الأول وهو: «لا يتبعنّ أحدكم بصره لقمة أخيه» فقد أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أبي هريرة برقم (٧٧٠٠).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، برقم (٧٣١٧) [٧/ ٢١٧ ـ ٢١٨] بلفظ: «أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي» رواه أبو يعلى في مسنده، تابع مسند جابر، حديث رقم (٢٠٤٥) [٤/ ٣٩] ورواه غيرهما.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) ورد بلفظ: «شركم من نزل وحده وضرب عبده ومنع رفده» (مسند الشاميين) للطبراني، رقم (١٤٣٢) [٢/ ٣٢٨] و(تاريخ مدينة دمشق) لعلي بن عبد الله الشافعي [٣٧/ ٣٤٥].

الدنيا أكثرهم جُوعاً يوم القيامة»[١]. وقال الحسن: كان بلية آدم في أكلة، وهي بليتكم إلى يوم القيامة. وقال سهل بن عبد الله: لأن أترك من عشائي لقمة أحب إليّ من إحياء ليلة. وقال يحيى بن معاذ: لو كان الجوع يُبَاع في الأسواق لما كان لطلاب الآخرة أن يشتروا سواه. وقال: لو تشفّعتَ إلى نفسِكَ بالملائكة المقرّبين والأنبياء والمرسلين في تَرْكِ شهوة لرَدَّتْهُم أجمعين، ولو توسَّلْتَ إليها بالجوع لانقادت لك وصارت من الطائعين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالساً فقلت: ما أصابك؟ قال: «**الجوع**» فبكيت، فقال: «**لا تبكِ، إن شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسبَ ذلك في الدنيا**»[٢] وروي عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ أحسَّ من نفسه نَشاطاً فليذبها بالجوع والعطش**»[٣]

ويكره الانتظار عند حضور الطعام، وقد قيل: قلوب الأبرار لا تحتمل الانتظار، ويكره تفويت الأوقات بالاشتغال بالأكل؛ حكي عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها، ويقول: الوقت أعز من أن يشغل بالأكل. وكرّه أكثرُهم تلقيمَ من يخدمهم مما بين أيديهم لا سيما إذا كان ضَيْفاً؛ فإنه لا يجوز له التصرف فيما قدم إليه إلا بالأكل، وقد اختلف العلماء في تمليك الضيف ما قدم إليه فقال بعضهم: يملكه بالإحضار بين يديه، وقال بعضهم: بالتناول، وقال بعضهم: بالوضع في الفم، وقال بعضهم: باستيفاء الأكل بالبلع.

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام؛ فإنهم لا يأكلون إلا بالإيثار. وقال بعض المشايخ: واجبٌ على المضيف ثلاثة أشياء، وعلى الضيف ثلاثة أشياء؛ فأما الذي على المضيف فأنْ يُطْعِمَهُ من الحلال، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام، وأما ما على الضيف فأن يجلس حيث يُجلَّس، وأن يرضى بما قدم إليه، وأن لا يخرج إلا بعد الاستئذان؛ روي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ مِنَ السُّنَّةِ أن يُشيِّع الضيفُ إلى باب الدار**»[٤]

* * *

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن أبي جحفة، حديث رقم (٨٤٢٣) [٥/ ٣٥٦] والمنذري في الترغيب والترهيب، كتاب الطعام وغيره..، حديث رقم (٣٢٣٥) [٣/ ٩٩] ورواه غيرهما.

(٢) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أبي هريرة، حديث رقم (٨٣٩٣) [٥/ ٣٤٨] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (١٠٤٢٥) [٧/ ٣١٤] ورواه غيرهما.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، من اسمه سلم، برقم (٧٧٩) [٣/ ٣٢٦] والذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال برقم [(١٢٤٧) (٢٤٤٦)] [٢/ ٤٥] ورواه غيرهما.

فصل
في ذكر آدابهم في النوم

روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«من نام حتى أصبح بالَ الشيطان في أذنيه»**[(١)] ومن أدبهم في ذلك أن يجتنب النوم بين جماعة قعود؛ فإذا غلبه النعاس بينهم فإما أن يقوم أو يدفع عن نفسه ذلك بمحادثة أو غيرها؛ ولا يتعود الانبطاح، فإن كان ممن له غطيط فيتعود النوم على الجنب، ولا يستلقي، ويجتهد أن يكون نومه لله وبالله، ولا يكون نائماً عن الله، فأما النائم لله فهو القاصدُ إلَى أخذ بُلْغَةٍ من النوم يستعين بها على أداء الفرائض وتحصيل النوافل خصوصاً آخر الليل؛ لما روي في الحديث «أن الحق عزّ وجل يقول آخر الليل: هل من داعٍ فأستجيب له، هل من سائلٍ فأعطيه سُؤْلَه، هل من مستغفر فأغفر له»[(٢)] وأما النائم بالله فهو العارف الذاكر من ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] إلى أن يرد عليه النوم من غير اختياره؛ وهم الذين يبيتُون لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً، وأما النائم عن الله فهو الغافل عنه؛ كما جاء في مناجاة داود ﷺ قوله: **«كذب من ادّعى محبّتي إذا جَنَّه الليل نام عني، أليس كل محبٍّ يحب خلوة حبيبه، فها أنا مطلع على قلوب أحبّائي»**[(٣)]

ومن آدابهم النوم على الطهارة والاضطجاع الى الشّقّ الأيمن، ويقول باسمك اللهم وضعتُ جَنْبِي، وباسمك أرفعه، اللهم إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم قِني عذابَكَ يومَ تَبْعَثُ عبادك. ويذكر الله كلما انتبه، فإن توضأ وصلّى ركعتين ثم نام كان أولى، ويكره النوم بعد صلاة الصبح، وبعد المغرب، وقيل من أراد قِلّة النوم فليجتنب شُرْبَ الماء إلا قدر تسكين العطش، ومن كان بين جماعة فناموا فإما أن يوافقهم وينام أو يقوم عنهم. وتستحب

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب صفة إبليس، حديث رقم (٣٠٩٧) [٣/ ١١٩٣] ومسلم في صحيحه، باب ما روي فيمن نام الليل، حديث رقم (٧٧٤) [١/ ٥٣٧] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب الدعاء والصلاة من آخر الليل. . ، حديث رقم (١٠٩٤) [١/ ٣٨٤] ومسلم في صحيحه، باب الترغيب في الدعاء والذكر. . ، حديث رقم (٧٥٨) [١/ ٥٢١] ورواه غيرهما. ونص رواية البخاري ومسلم هي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»**.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع

القَيْلُولة؛ لِيُستَعان بها على قيام الليل، وقيل: النوم أول النهار خَرق، وأوسطه خَلق، وآخره حمق. وكان بعضهم لا يضطجع من الليل حياء من الله تعالى ودام على ذلك ثلاثين سنة، إنما يستند إلى الجدار عند غلبة النوم، ويصوم النهار. وقال الجنيد: أتى على السّري نيِّف وثلاثون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في عِلَّة الموتِ وحُكِيَ أن أبا يزيد مدّ رجله في المحرابِ فنُودِيَ: من جالس الملوك بلا أدب تعرّض للقتل.

* * *

فصــل
في ذكر آدابهم في السَّمَاع

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المَائدة: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزُّمَر: ١٨] وقال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٥] قال مجاهد: يسمعون، وقال النبي ﷺ: **«ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حَسنِ الصَّوتِ بالذِّكرِ»**[(١)]. وروي أنه قرىء بين يديه ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المُزمّل: ١٢، ١٣] الآية. فصعق. وروي أنه قرىء بين يديه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النِّساء: ٤١] فبكى طويلاً. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان عندي جارية تُسْمِعُني، فدخل رسول الله ﷺ وهي على حالها، ثم دخل أبو بكر وهي على حالها، ثم دخل عمر فَفرت، فضحك رسول الله ﷺ، فقال: ما يضحك يا رسول الله؟ فحدّثه، فقال: لا أخرج حتى أسمع ما سمعه رسول الله ﷺ. فأمرها فأسمعته»[(٢)]

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه ابن راهوية في مسنده عن أبي مليكة برقم (١٢٥٨) [٣/ ٦٦٤] والهيثمي في مجمع الزوائد، باب غناء النساء، [٨ ـ ١٣٠ ـ ١٣١]. ونص رواية ابن راهويه هي:
عن عبد الله بن وائل قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: سمعت عائشة تقول: كانت عندي امرأة تسمعني فدخل رسول الله ﷺ على تلك الحال ثم دخل عمر فقعدت فضحك رسول الله ﷺ فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحدّثه فقال: والله لا أبرح حتى أسمع ما سمعه رسول الله ﷺ فأمرها فأسمعته.

وسئل ذو النون المصري عن السماع فقال: واردُ حَقٍّ يُزْعِجُ القلوبَ إلى الحقِّ فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق. وقال السَّريُّ: تَطْرَبُ قلوبُ المحبين عند السماع، وتخاف قلوب التائبين، وتلتهب قلوب المشتاقين؛ وقيل: مثل السماع مثل الغيث إذا وقع على الأرض تُصْبِحُ مُخضرة، كذلك القلوب الزكية يَظْهرُ مكنونُ فوائدها عند السماع. وقيل: السماع يُحَرِّكُ ما تنطوي عليه القلوب من السُّرُور والحزن والخوف والرجاء والشوق، فربما يحركه إلى البكاء، وربما يحركه إلى الطرب. وقيل: السماع فيه حظٌّ لكل عضو، فربما يَبْكِي، وربما يَصْرُخ وربما يُصَفِّق، وربما يَرْقُص، وربما يُغْمَى عَليه. وقيل: أهل السماع ثلاثةٌ: مستمع بربِّه، ومستمع بقلبه، ومستمع بنفسه، قال بعض المشايخ: لا يصلح السَّماع إلا لمن كان قلبه حَيًّا ونفسه ميتة؛ فأما من كانت نفسه حَيَّة وقلبه ميّتاً فلا. وقيل: لا يصح السماع إلا لمن فَنِيَتْ حظُوظُه، وبقيت حقوقه، وخمدت بشريته. وحكي عن بعضهم قال: رأيت الخَضِرَ عليه السلام فقلت: ما تقول في السماع الذي عليه أصحابنا؟ فقال: هو الصفاء الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. وقيل السماع مقدحة سلطانية لا تقع نيرانها إلا فيمن قلبه محترق بالمحبة، ونفسه محترقة بالمجاهدة.

ومن آدابهم: أن لا يتكلّفوا فيه، ولا يكون لهم وقت معلوم لذلك، ولا يسمعون للتطايب والتَّلَهِّي، ثم يسمعون ما كان داخلاً في أوصاف التائبين والخائفين والراجين، وما يحثهم على المعاملة، ويجدد لهم صدق الإرادة، ومن لا يعلم ذلك فعليه أن يقصد من يؤدِّبه فيه.

وقيل للنَّصراباذيِّ: إنك مولعٌ بالسماع. فقال: نعم، هو خير من أن تقعد وتغتاب فقال له أبو عمرو بن نُجيْد: هيهات يا أبا القاسم، زلة في السَّمَاع شَرٌّ من كذا وكذا سنة تغتاب الناس. وقال أبو عَليّ الرُّوذَبَارِي: بَلَغنَا في هذا الأمر إلى مكانٍ مثل حدِّ السيف، إن مِلْنَا كذا ففي النار.

وليس من الأدب استدعاء الحال والتكلّف للقيام إلا عن غلبة حالٍ تَرِدُ فتزعج، أو يكون على سبيل مساعدة لصادق أو مطايبة من غير تساكر ولا إظهار حال. وترك ذلك أولى؛ روي عن النبي ﷺ أنه كان يعظ فصعق رجلٌ من جانب المسجد، فقال: **«من ذا الملبِّس علينا ديننا؟ إن كان صادقاً فقد شهر نفسه وإن كان كاذباً محقه الله»**[(١)].

---

(١) رواه الذهبي في ميزان الاعتدال، من اسمه أحمد برقم (٥٥٩ ـ ٨٤٨) [١/ ٢٨٧] وليس فيه: «إن كان صادقاً فقد شهر نفسه..».

ويكره للشبان القيام بحضرة المشايخ وإظهار الحال؛ حُكِيَ أن شابًا كان يصحب الجنيد، وكلما سمع شيئاً زعق وتغيّر، فقال له: إن ظهر منك شيءٌ بعد هذا فلا تصحبني، فكان بعد ذلك يضبط نفسه، وربما كان يقطر منه من كل شعرة قطرةُ عَرقٍ، حتى كان يوماً من الأيام زعق زعقةً خرجت فيها روحه.

ولا رخصة للأحداث في القيام والتحرك أصلاً، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السَّمَاع، وإذا كان الوقت جداً فلا يجوز للمتكلف المداخلة والمزاحمة على طريق الموافقة والمساعدة أيضاً.

حكي أن ذا النون المصري دخل بغداد فدخل عليه جماعة ومعهم قَوَّالٌ فاستأذنوا أن يقول شيئاً، فأذن لهم. فأنشد يقول:

صَــغـيــرُ هَــوَاكَ عــذَّبــنـي ... فَـكَـيْـف بِـهِ إذا احْـتَـنَـكَـا
أمــا تَــنْـظُـر لِـمُـكْـتَـئِـبٍ ... إذَا ضَـحِـكَ الْـخَـلـيُّ بَـكَـى
وَإنْ جَـمَـعْـتَ مِـنْ قَـلْـبـي ... هَـوًى قَـدْ كَـانَ مُـشْـتَـرَكَـا[1]

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبينه ولا يقع على الأرض، ثم قام واحدٌ منهم فنظر إليه ذو النون وقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٨] فجلس الرجل.

والسكون مع حضور القلب، وجمع الهمَّةِ، والوقوف على أحوال المستمعين أولى من المداخلة؛ لأنه محل الاستقامة والتمكين.

والإنصات من أدب الحضرة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وإذا انعقد مجلس السماع يبدأ بالقرآن ويختم به، فقد حُكِيَ عن ممشاد

(١) هذه الأبيات من بحر مجزوء الوافر، هي للشاعر العباسي ابن الزيات محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر وزير المعتصم والواثق، عالم باللغة والأدب، ولد سنة ١٧٣هـ وتوفي سنة ٢٣٣هـ. ونص الأبيات هو:

صَــغـيــرُ هَــواكَ عَــذَّبَــنـي ... فَـكَـيـفَ بِـهِ إذا احـتَـنَـكـا
وَأنـتَ جَـمَـعـتَ مِـن قَـلـبـي ... هَـوىً قَـد كـانَ مُـشـتَـرِكـا
وَحَـبـسُ رِضـاكَ يَـقـتـلُـنـي ... وَقَـتـلـي لا يَـحِـلُّ لَـكـا
أَمـا تَـرثـي لِـمُـكـتَـئِـبٍ ... إذا ضَـحِـكَ الـحَـزيـنُ بَـكـى

(موسوعة الشعر العربي، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

الدينوري: أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فسأله عن اجتماع القوم للسماع. فقال: لا بأس ابدؤوا بالقرآن واختموا به.

ويكره للمريد سماعُ الغزل والأوصاف؛ فإنها بعيدة الغور. حُكِيَ عن بعض المشايخ أنه قال: السماع شهوة في قعر شبهة لا يُحْسِنُ تناولها إلا عارفٌ ذو بصيرة وفطنة، يختلس الشهوة ولا يمس الشبهة. وقال الجنيد: كل مريد رأيْتَه يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقيّة من البطالة. وقيل: السماع صراط ممدود يقصده صاحب يقين ووجود وصاحب شك وجحود، إما أن يرفع سالكه إلى أعلى علّيين، أو يُكَبْكِبه في أسفل السافلين. وقال بعض المريدين لبعض المشايخ: أليس المشايخ كانوا يميلون إلى السَّمَاع؟ فقال: إذا كنت مثلهم فاسمع أنت أيضاً. وقيل: السماع سرورُ ساعةٍ تَزُول. وهَمُّ ساعة قؤول.

ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلهى. حكي عن أبي عبد الله بن حفيف أنه قال: حضرتُ مع شيخي أحمد بن يحيى في دعوة بشيراز واتفق فيها سماع فطاب وقتُ الشيخ وقام يَتَواجَد ويدور، وكان في صَفّه بحذائنا قومٌ من أبناء الدنيا، فتبسّم واحد منهم، فأخذ الشيخ منارة كانت هناك فرماه بها فأصاب الجدار فانغرست أرجلها الثلاث في الحائط، وقد كان صلّى ثلاثين سنة صلاة الصبح بوضوء العشاء.

سئل بعض المشايخ عن شرب القلوب من السماع، وشرب الأرواح منه، وشرب النفوس منه. فقال: شرب القلوب الحِكَمُ، وشرب الأرواح النِّعَمُ، وشرب النفوس ذكر ما يوافق طبعها من الحظوظ.

وسئل عن التكلف في السماع. فقال: هو على ضربين: تكلف من المستمع لطلب الجاه أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة، وتكلّف منه لطلب الحقيقة؛ كمن يطلب الوجد بمنزلة التواجد وهو بمنزلة التباكي من البكاء. قال ﷺ: **«إذا رَأَيْتُم أهلَ البلاء فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»**[١].

---

(١) لم أعثر على هذا النص إنما الذي ورد هو:
عن عبد الرحمٰن بن السائب قال: قدم علينا سعد بن أبي وقاص وقد كفّ بصره فسلّمت عليه فقال: مَن أنت؟ فأخبرته فقال: مرحباً بابن أخي بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا»**.
رواه ابن ماجه في سننه، باب في حسن الصوت بالقرآن، حديث رقم (١٣٣٧) [١/ ٤٢٤] والبيهقي في السنن الكبرى، باب البكاء عند قراءة القرآن [١٠/ ٢٣١] ورواه غيرهما.

قال أبو نصر السَّرَّاج رحمه الله: أهل السماع على ثلاث طبقات: طبقة منهم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحقّ لهم فيما يسمعون، وطبقة منهم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة أحوالهم ومقاماتهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون إليه من ذلك، وطبقة منهم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق، ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع، فهم يسمعون بطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع، فهم أقرب الناس إلى السلامة، وأسلمهم من الفتنة، وكل قلب ملوَّث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

وقيل: يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال، فإن القوي لا يحتاج إلى شيء من ذلك؛ قال الحصري: ما أدْوَن حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه، ولعمري لا تحتاج الثكلى إلى نائحة.

وقيل: السماع لقوم كالغذاء، ولقوم كالدواء، ولقوم كالداء، ولقوم مروحة؛ قال الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي: الوجد قد يكون زيادة لقوم، ونقصاناً لآخرين، وهو كالسلاح يصلح للجهاد في سبيل الله، ولِقتْل أولياء الله؛ وكذلك الشمس تُصلح شيئاً وتفسد شيئاً آخر.

وقيل السماع من حيث المستمع؛ فقد سمع بعضهم طوافاً يصيح يا سَعْتَرْ بَرِّي فأغمي عليه فسئل عن ذلك فقال: حسبته يقول اسْعَ ترى بري. وسمع الشبلي رحمه الله منشداً ينشد ويقول:

أسائِلُ عَنْ ليْلى فَهَل مِنْ مخبر يَكُونُ لهُ عِلْمٌ بِهَا أيْن تَنْزِلُ[1]

فزعق وقال: لا والله ما في الدارين عنها مخبر. وقال الصُبَيْحِي: يجب أن يكون الواجد ـ إذا كان وجده صحيحاً ـ محفوظاً في حال وجده لا يجري عليه لسان الذم بحال. وقيل: الوجد سر صفات الباطن، كما أن الطاعة سر صفات الظاهر، وصفات الظاهر الحركة والسكون، وصفات الباطن الأحوال والأخلاق. وأما حكم الخرق التي تقع في السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهي للجماعة. وما كان منها لقول قوّال وإنشاد منشد فإن لم يكن هناك جماعة فإنها للقوّال خاصة. وإن كان هناك جماعة فقد اختلفت أقاويل المشايخ فيها؛ فذهب بعضهم إلى أنها للقوال لأنه

(١) نسب هذا البيت في موسوعة الشعر العربي، إصدار المجمع الثقافي في (أبو ظبي) لأبي بكر الشبلي نفسه والشبلي هو دلف بن جحدر من كبار الصوفية ولد سنة ٢٤٧هـ وتوفي سنة ٣٣٤هـ.

لما وجد الفائدة في سره من جهته خلع عليه بدلاً عما أتحفه به، وذهب بعضهم إلى أنها للجماعة والقوال فيها كأحدهم لأن بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القوال. وروي أن النبي ﷺ قال يوم بدر: **«من أتى مكان كذا فله كذا، ومن قتل فله كذا، ومن أسر أسيراً فله كذا»**(١) فتسارع الشبان والفتيان، وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طَلبُوا ما جعل لهم، فقال الشيوخ: كنا ظهراً لكم ورداء، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفَال: ١] الآية. فقسمها النبي ﷺ بينهم بالسوية(٢)، ومنهم من قال: إن كان القوال من جملة القوم فهو كأحدهم وليس له استبداد بشيء منها، وإن كان أجنبياً فما كان منها لها قيمة يؤثر هو بها، وما كان من خريقات الفقراء فهم أولى بها. ومنهم من قال: إن كان القوال أجيراً فليس له منها شيء وإن كان متبرعاً فله ما يصلح له منها، وإذا قلنا: إنها لهم فحكمها أنهم لا يشتغلون بها ما داموا في السماع، فإذا انقضى وقته جمعوها في الوسط، ثم إن كان هناك محب لهم فحكمه أن يفديها بما يوجب وقته عن غير معاوضة فيها ولا مناداة عليها، فإن ذلك استخفاف بحقها وحقهم، ثم إن كان هناك شيخ له حكم فالحكم فيها إليه من تخريق وتبديل ورد على أصحابها وقال أهل الشام: الفقير أولى بخرقته، وأنكر الجمهور منهم ذلك، ومنهم من قال: ما كان وقع منها على سبيل المساعدة أو مشوباً بالتكلف فالرد أولى، وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة؛ لما فيه من التكلف المباين للحقيقة. وإن لم يكن هناك شيخ له حكم يمضون فيه حكم الوقت ولا يؤخرون ذلك، ويكرهون تخريق المرقعات إلا أن يكون تبركاً، وما كان منها من خرق الفقراء فما كان يصلح منها للرقاع فتخريقه أولى، لكن يصيبُ الكلُّ نصيباً ولا يبقى البعض محروماً، ويفرق على الحاضرين دون الغُيَّب؛ لأن الغنيمة لمن شهد الموقعة، وإذا حضر معهم غيرهم فالمحبون منهم يعطون من الخرق.

---

(١) (٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر السبب الذي من أجله أنزل الله جلّ وعلا: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفَال: ١] حديث رقم (٥٠٩٣) [١/ ٤٩٠] والنسائي في السنن الكبرى، سورة الأنفال، حديث رقم (١١١٩٧) [٦/ ٣٤٩] ورواه غيرهما ونصه:

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«من أتى مكان كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فله كذا وكذا»** فتسارع إليه الشبان وبقي الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤوا يطلبون ما قد جعل لهم النبي ﷺ فقال لهم الأشياخ: لات ذهبون به دوننا فإنا كنا ردءاً لكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفَال: ١].

وكيف يُقْسَم ذلك؟ اختلف المشايخ فيه، فقال بعضهم: يقسم عليهم بالتفاضل كقسمة المواريث والغنائم، وقال بعضهم: إن كان يقسم ذلك شيخ يقسمه بالتفاضل وإن كانوا يقسمونه فيما بينهم قسموه بالسوية، وما لم يصلح فيها للرِّقاع فالإيثار بها أولى لمستحق من الفقراء، وما كان ثياب المحبين فالبيع أولى، والإيثار للقوال بها دون التخريق.

* * *

فصل
في ذكر آدابهم في التزويج

الأولى أن يرغب في المرأة الدَّيِّنة الصالحة؛ قال رسول الله ﷺ: «**تُنْكَحُ المَرأةُ لِدِينِهَا وَمالِهَا وَجَمالِهَا، فعليك بذات الدين تربت يداك**»[1] وقال ﷺ: «**أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة**»[2] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خلق النساء من ضعف وعورة فداووا ضعفهن بالسكوت وعوراتهن بالبيوت.

وآدابهم في ذلك أن لا يتزوج للدنيا ولا بذات اليسار بل للسنة وللدين والنسب والعفة، ثم يقوم بما لا بد من الكفاية بحسب الطاقة فإن عجز أو طلبت فوق الطاقة خَيَّرَها بين الوفاق على المُكْنة أو طلاق الفرقة اقتداء برسول الله ﷺ حيث أنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وكنَّ تسعة، فخيرهن رسول الله ﷺ وبدأ بعائشة رضي الله عنها وقال لها: «**إني محدثك بحديث فاستشيري فيه أبوَيك**»[3] فلما أخبرها به قالت: أوَفِيك أستَشِيرُ أبوَيَّ؟! فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، وقالت: لا تخبر نساءك بهذا فقال: «**والله لا يسألنني عن ذلك إلا خبرتهن**»[4] فلما أخبرهن اخترن الله ورسولَهُ،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب الأكفاء في الدين...، حديث رقم (٤٨٠٢) [١٩٥٨/٥] ومسلم في صحيحه، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم (١٤٦٦) [١٠٨٦/٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه النسائي، في السنن الكبرى، باب بركة المرأة، حديث رقم (٩٢٧٤) [٤٠٢/٥] وابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب، من اسمه الطفيل، حديث رقم (٢٦) [١٤/٥].

(٣) (٤) والقصة كاملة كما في صحيح مسلم، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون كلاماً إلا بالنية، حديث رقم (١٤٧٨) [١١٠٤/٢] على النحو التالي: =

فشكرهن الله تعالى على ذلك، ثم أنزل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢] الآية، والأوْلَى في زماننا مجانبة التزويج، وقمع النفوس بالرياضة، والجوع والسَّهر، والسَّفر.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«عليكم بالنِّكاح فَمَنْ لَمْ يَستَطع فعليه بالصَّوْم فإنه له وجاء»**[1] قيل لبعض الصالحين: ألا تتزوج؟ فقال: لي نفسٌ لَوْ تَمَكَّنتُ من تطليقها لطلَّقْتُها فَكَيف أضم إليها أخرى؟ وقال بشر: لو دُفِعْتُ إلى الاهتمام بمؤونة دجاجة ما آمنت على نفسي أن أصبح شرطيًا. وقال: مكابدة العِفَّة أيسر من مصلحة العيال. وقال: رأيت الصبر عنهن أسهل من الصبر عليهن. وقال بعضهم: مقاساة العيال عقوبةٌ تُنفِّذ للشهوة الحلال. وحكي أن رجلاً خطب إلى ميمون بن مهران ابنةً، فقال: لا أرضاها لك. قال: لِمَ؟ قال: لأنها طلبت الحَلْيَ والْحللَ. فقال: عندي ما هي تريد. قال: إذاً لا أرضاك لها. وأراد بَعْضُهم تطليقَ زوجته فقيل له: ما يسوءك منها؟ قال: العاقلُ لا يهتكُ سِتْرَ زوجته. فلمّا طلقها قيل له: لِمَ طلَّقتَهَا؟ قال: ما لي والكلام فيمن صارت أجنبية مني حراماً عليّ. روي أن النبي ﷺ لَمَّا هَمَّ بتزويج فاطمة رضي الله عنها لعلي رضي الله عنه قال له: **«تكلّم لنفسكَ خطيباً»**، وقد حضر المهاجرون والأنصار. فقال: الحمدُ للّهِ حمداً يبلغه

= عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً قال: فقال: لأقولن شيئاً أُضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال: **«هن حولي كما ترى يسألنني النفقة»** فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قال: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت: قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً».

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما ورد بألفاظ أخرى متقاربة منها ما رواه البخاري في صحيحه، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، حديث رقم (١٨٠٦) [٢/ ٦٧٣] ونصه: **«من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**.

ويرضيه، وصلى الله على محمد صلاة تزلفه وتحصيه، والنكاح مما أمر الله به ورضيه، واجتماعنا مما أذن الله فيه وقدّره، وهذا محمد رسول الله ﷺ زوَّجني ابنته فاطمة على صداق خمسمائة درهم، وقد رضيت فسَلُوه واشهدوا. وقال علي رضي الله عنه: ما كان لنا إلا إهاب كَبْشٍ نبيت عليه بالليل ونَعْلِفُ عليه الناضح بالنهار(١).

* * *

فصــل
في ذكر آدابهم في السؤال

قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] وقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١].

وقال النبي ﷺ: **«أعطوا السائل ولو جاء على فَرَس»**(٢) وقال: **«لو صدَق السائل في سؤاله ما أفلح مَنْ ردّه»**(٣). وقال: **«مَا صَاحِبُ الصدقة بأعظم أجراً من الذي يَقْبَلُها إذا كان مُحتاجاً»**(٤). وقال: **«من سأل مسألَةً وهو غنيّ عنها فإنما يستكثر من النار»**(٥). وقال: **«لا تَحِلُّ الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة (قوة) سوي»**(٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: مَكْسَبٌ فيه بعض الرِّيبَة خيرٌ من مسألة الناس.

وقال الجنيد رحمه الله: كلُّ صوفي عوَّد نفسه أخذ الأسباب عند وقوع الشدائد فإنه لا يَنْفَكُ عن رقة نفسه، ولا يحمل الصبر.

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب مسألة الناس، حديث رقم (٢٠٠١٧) [١١/٩٣] ومالك في الموطأ، باب الترغيب في الصدقة، حديث رقم (١٨٠٨) [٢/٩٩٦] ورواه غيرهما.

(٣) أورده الدينوري في تأويل مختلف الحديث، ذكر أصحاب الحديث، [١/٧٥] ورواه ابن عبد البر في التمهيد، [٥/٢٩٧] وأورده غيرهما.

(٤) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا وقت فيما يعطى الفقراء..، حديث رقم (١٢٩٨٢) [٧/٢٣] وروى نحوه غيره.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، حديث رقم (١٤٧٨) [١/٥٦٥] والبيهقي في السنن الكبرى، باب الفقير أو المسكين له كسب..، حديث رقم (١٢٩٣٥) [٧/١٣] ورواه غيرهما.

وقال أبو حفص: مَن تعوّد السؤال ابْتُلي بالطمع والخيأنة والفكر. وآدابهم في ذلك أن لا يسألوا إلا عند الضرورة والحاجة، ولا يأخذون إلا قدر الكفاية؛ وقال بعضهم: الفقير إذا اضطر إلى السؤال فكفارته صدقةٌ، وقيل: لا يجوز رَدُّ طالب فهو إما كريم فتصونه؛ أو لئيم فتصون نفسك عنه وتصون وجهك عن رَدِّه.

ويكرهون السؤال لأنفسهم، ويستحبونه للأصحاب. حكي عن ممشاد الدينوري كان إذا ورَدَ عليه الغُرَبَاء دخلَ الأسواق وجمع من الدكاكين شيئاً وحمله إليهم. ولا يعدون ذلك سؤالاً لما فيه من التعاون على البر. وكان النبي ﷺ يسأل لأصحابه؛ ولو كان سؤالاً لاحترز منه ﷺ.

ويستحب بذل الجاه للإخوان؛ قال بعض المشايخ: لا يصح الفقر للفقير حتى يبذل جاهه كما يبذل ماله.

وأدب الخادم في السؤال أن لا يرى نفسه في الأخذ ولا في العطاء، ويكون مُعَوَّلهُ على هم الفقراء، ويكون الوكيلَ على الفريقين؛ قال الشبلي: إذا خرجت إلى الناس للسؤال فلا تراهم ولا ترى نفسكَ.

وكان الشيخ أبو العباس النهاوندي إذا وردَ عليه الغرباء دخل السوق وجمع ما ينفق من الأطعمة ويحملها على يده إليهم. وكان يقول: منذ عشرين سنة ما أخذت من أحد شيئاً، وكان يكره السؤال، وينكر على أهله.

وقال الجنيد: لا يصح السؤال لأحد إلا لمن كان العطاء عنده أحب من الأخذ، والأولى للخادم أن يَسْتَقْرِضَ ما يحتاج إليه من نفقةِ قومه بالمعروف، وينفق عليهم، ثم يسأل ويقضي دينه؛ فإن ذلك أقرب إلى السلامة.

وقد رَخَّص بعضهُم في السؤال لمن يقصد بذلك تَذْلِيلَ نفْسِه. وقيل: لا خير فيمن لمْ يَذق طعمَ إهانة الردّ. وكان بعض المشايخ لا يأكل إلا من السؤال فسئل عن ذلك. فقال: اخترته لكراهية نفسي له.

وقيل: سَعْيُ الإخوان الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم، وقيل: الأكل بالسؤال أجمل من الأكل بالتقوى، وقيل: من سأل وله ما يغنيه خيفَ عليه أن يخاصمه الفقراء يوم القيامة وتقول أخذتَ ما جُعِلَ لنا وَلَمْ تَكُنْ مِنَّا.

* * *

فصـــل
في ذكر آدابهم في حال المرض

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حُمَّى يَوْمٍ بكَفَّارَةِ سَنَةٍ»[(١)]. وقال للأنصار لَمَّا حُمُّوا «أَبْشِرُوا فإنَّهَا كَفَّارة وطهور».

وقال بعض الحكماء: إن في العلل ما لا ينبغي للعاقل أن يجهل قدرها فإنها تمحيصٌ للذَّنْبِ، وتَعَرُّضٌ لثواب الصبر، وإيقاظ مِنَ الغفلة، وإذْكَارُ النعمة في حال الصحة، وتجديدٌ للتوبة، وحثٌّ على الصدقة؛ حكي أن ذا النون المصري دخل على مريض يعوده فأنَّ أنَّةً. فقال ذو النون: ليس بصادقٍ في حُبِّه مَنْ لَمْ يَتَلَذَّذ بضربه. وحكي أن بعض العارفين مَرِضَ فَوَصَفَ عِلَّتَه للطبيب فقال له: أليس هذا شكوى؟ فقال: لا، إنما هو إخبار عن قُدْرَةِ قادر. وقال خادم لكليب السنجاري: قال لي الشيخ يوماً: هل ترى على ظاهر جسدي موضعاً خالياً من الدود غير اللسان؟ فقلت: لا فقال: كذلك ليس في داخل جسدي موضع خال من الدود غير القلب.

واعتلّ ممشاد الدينوري رحمه الله تعالى فقيل له: كيف تجد العِلَّة؟ فقال: سوء العلة فقيل له: كيف تجد قلبك؟ فقال: فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة.

وقال بعض المشايخ: لأن أُعَافَى فأشْكُر أحبّ إليّ من أن أُبْتَلَى فأصبر.

وقد قال الله تعالى في قصة سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وفي قصة أيوب وبلائه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]. وقال النبي ﷺ: «تَدَاوَوْا عبادَ الله؛ فإن الله تعالى لم يَخْلُقْ دَاءً إلا وخلق له دَوَاء»[(٢)] فقيل: يا رسول الله، هل يرُدُّ التداوي مِنْ قَضَاءِ الله شيئاً؟ فقال: «هو من قضاء الله تعالى»[(٢)].

* * *

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الطب، حديث رقم (٧٤٣٠) [٤/ ٢٢٠] ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الطب، حديث رقم (٦٠٦١) [١٣/ ٤٢٦] ورواه غيرهما ولفظه: «تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يُنزل داء إلا وقد أنزل له شفاء إلا هذا الهرم» قالوا: يا رسول الله ما خير ما أعطي العبد المسلم؟ قال: «خلق حسن».

فصل
في ذكر آدابهم في حال الموت

قال النبي ﷺ: **«أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللذَّات، فما ذكره عبدٌ في سِعَةٍ إلا ضاقت عليه، ولاَ ذَكَرَهُ في ضيق إلا اتسع عليه»**[1].

وقال ﷺ عند الموت: **«وَاكَرْباه»**[2] فقيل: إنما ذلك ترك التجلّد على قضاء الله كذا، وقيل: إخبار عن شدته ليكون الخلق على حَذَر من كربته. وقيل: إنما قال ذلك اعترافاً بالعجز وتواضعاً لتشريع ذلك، وقيل: إنما قال ذلك لَمَّا كُوشِفَ بالموعود، ولقاء الملك المعبود، فقال: واكرباه من زحمة الدنيا وزحمة الخلق، واكرباه من بقية الحجاب، متى يكون الوصول إلى رب الأرباب؟.

وقال الخليلي: كنت عند الجنيد وقت وفاته فكان يقرأ القرآن، فقلت: أرْفق بنفسك يا سيدي، فقال: أحوج ما كنت إليه الساعة، وهو إذا تُطْوى صحيفتي وتخْتَم، ثم ابتدأ وقرأ سبعين آية من سورة البقرة، ومات رحمه الله.

وحُكِيَ أن خيراً النسّاج نظر وقت النَّزْع وقال: إنما أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وما أمِرْتَ به لا يفوتُك، وما أمِرْتُ به يفوتني، فدعا بماء وتوضأ وصلّى، ثم كَبَّر ومات رحمه الله.

وكان علي بن سهل يقول: أترونني أموت كما يموت هؤلاء المرضى؟

إنما أُدْعَى فأُجِيبُ. فكان يوماً جالساً إذ قال: لَبَّيْكَ، فمات رحمه الله تعالى.

وحكي عن أحمد بن خضرويه لما حضرته الوفاة وكان عليه دَين سبعمائة دينار وغرماؤه حوله، فنظر إليهم ثم قال: اللهم إنك جعلت الديون وثيقة لأرباب الأموال وأنت تأخذ وثيقة غرمائي فأدِّ عَنّي فدَقَّ داقٌّ البابَ وقال: هذه دار ابن خضرويه؟ قيل: نعم، قال: أين غُرَمَاؤُه؟ فخرجوا إليه، فقضى لهم، ثم خرجت روحه رضي الله عنه.

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (٦٦٨) [١/٣٩] ولفظه: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات فما ذكره عبد قط وهو في ضيق إلا وسعه عليه ولا ذكره وهو في سعة إلا ضيّقه عليه»**.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، بقية أخبار الحسن بن علي..، حديث رقم (٢٦٧٦) [٣/٥٩ ـ ٦٤].

ولما حَضَرَ أبا عثمان الحِيري الوفاة مَزَّق ابنُه القميصَ ففتح عينيه وقال: خِلاَفُ السنة في الظاهر مِن رِياءِ الباطن في القلب.

وقيل للجنيد عند الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذْكُره.

وقيل لأبي محمد الديلمي: قل لا إله إلا الله، فقال: هذا شيء قد عَرفْناه وبه نفني.

وقيل لرُوَيْم ذلك. فقال: لا أُحْسِنُ غَيْرَه. وحُكِيَ أن أبا سعيد الخرّاز كان يتواجد عند الموت، وكان قد مات جميع بَدنِه وبلغَت الروح الحلقوم وهو يزعق ويقول:

حنين قلوب العارفين لذكره وتذكارهم وقت المناجاة للسر
وأجسادهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحب نحو العُلَى تسري

وهذا يدل على سروره وسكون ضميره.

نظر الحسن البصري إلى رجل يجود بنفسه فقال: إن أمر هذا آخره لجدير أن يُزَهَّدَ في أوله، وإن أمر هذا أوله لجدير أن ينهاه آخره.

وحكي أن الشبلي اعتلّ بعلةٍ فأُرْجِفَ بموته، فبادر المشايخ ودخلوا عليه وجلسوا حوله. فقال: أيش الخبر؟ فقال المالكي ـ وكان أجرأهم عليه ـ جاء القوم إلى جنازتك، فقال: العجب العجب من أموات جاؤوا لجنازة حيّ.

وقال أبو بكر الدِّينَوَرِيّ: لما حضرت وفاة الشبلي فقال: عليّ درهم مظلمة، فتصدقت بألوف عن صاحبه وما على قلبي شغل أعظم من ذلك.

ثم قال: وَضِّئْنِي فوضأته ونسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض عَلى يدي فأدخلها في لحيته وقد عرق جبينه ولم يذهب عليه هذا القدر من السنة فمات رحمه الله.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: دخلت على عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد احتضر للموت، فدخل عليه ابنه عبد الله فقال: يا عبد الله، خذ هذا الصندوق. فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: إنه مملوء مالاً. فقال: لا حاجة لي فيه. ثم قال عبد الله: ليته مملوء فقراً!! فقال ابن عباس رضي الله عنه: فقلت له: يا عبد الله: كنت أقول أشْتَهِي أن أرى رجلاً عاقلاً يموت فأسأله كيف تجده وكيف يجدك؟ فقال: إن السماء كأنها منطبقة على الأرض، وأنا بينهما، وكأنما أتنفس من

خرم إبرة. ثم قال: اللهم خُذْ مِنِّي حتى ترضى، ثم رفع يده وقال: اللهمّ إنك أمرتَ فعصَيْتُ، ونَهَيْتَ فَارْتَكَبْتُ، فلا برىء فأعتذر، ولا قويّ فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله ثلاث ـ ثم مات.

ولما احتضر عبد الملك بن مَرْوَان نظر إلى أولاده حوله وبناته يبكين.

فأنشد يقول:

ومستخبرٍ عنا يريد بنا الرَّدَى ومستخبرات والعيون سواجم[(١)]

* * *

فصل
في ذكر آدابهم وقت البلاء

قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] قيل: طبخناك بالبلاء طبخاً حتى صرت صافياً نقيًا. وقال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى ادخر البلاء لأوليائه كما ادخر الشهادة لأحبائه**»[(٢)].

وقال النبي ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أكثر الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل**»[(٣)] وقال عليه السلام: «**أَحَبُّ العباد إلى الله تعالى شابٌ عابدٌ ومُبْتَلى صابرٌ، وفقيرٌ نَاشِطٌ؛ فإن الله تعالى يتعاهد عبده بالبلاء كما يتعاهد الوالدُ الشفيقُ وَلَدَه**»[(٤)].

وآدابهم في ذلك تَرْك الجزَع والشكوى في ملاحظة ثمرة البلوى، وما أعدّ الله تعالى للصابرين، حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: ١٠]. فمن شهد برؤيته البلاء من المبتلى غابَ عن وجدان مرارة البلاء وصعوبته؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُور: ٤٨] ألا ترى أن صُوَيْحِبات

---

(١) هذا البيت من قصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً من البحر الطويل للشاعر الفاطمي ابن سنان الخفاجي؛ عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجي الحلبي، شاعر أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره ولد سنة ٤٢٣هـ وتوفي في قلعة عزاز من أعمال حلب سنة ٤٦٦هـ.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) ورد بألفاظ أخرى منها ما رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (٢٩٠١) [٧/ ١٦١] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من توطين النفس. . ، حديث رقم (٢٩٠٠) [٧/ ١٦٠] ورواه غيرهما.

يوسف غِبْنَ في رؤيته عن وجدان أَلَم القطع ولم يشعرنَ بذلك إلى أن غاب. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١].

وقيل لبعض الشطّار: متى يَهُونُ عليكَ الضَّرْبُ والقَطْعُ؟ قال: إذا كنا نعاين من نهواه. فيعد البلاء رجاء والجفاء وفاء والمحنة منحة. أنشد مجنون بني عامر يقول:

ومِنْ أجْلِ ليلى عذب القلب والحشا ومن أجل ليلى قربوا لي مكانيا
ومن أجل ليلى رَجَّل القوم للمنى بنضح دمي يا حبذا أنت جانيا
ومن أجلها سُمِّيتُ مجنون عامرِ فَدَاهَا مِنَ المَكْرُوهِ نفسي وماليا
فلولاك يا ليلى لما جئت طارقا أدور على الأبواب بالذُّلِّ راضيا

وله أيضاً:

أَذِلُّ لآلِ ليلى في رضاها وأحتمل الأكابر والصغارا

ولأبي الشيص رحمه الله تعالى:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلاَ مُتَقَدَّمُ
أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً حُبًّا لذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللَّومُ
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحِبُّهم إذْ كان حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنْهُمُ
وأهنتني فأهنت نفسي عامدا ما مَن يهونُ عليكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ

ألا ترى أن هؤلاء يهون عليهم البلاء في رؤية محبوبهم وكيف يتلذذون ويفتخرون به، هكذا مَنْ يكون صادقاً في دعواه متحققاً في بلواه، لا يُؤَثِّر فيه تغيُّرُ الزمان، وطوارق الحدثان.

وقال بعضهم:

ذُلُّ الفتى في الحبِّ مَكْرُمَةٌ وخُضُوعُه لحبيبه شَرَفُ

وروي أنه قيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: إن أبا ذر يقول: الفقر أحبّ إليّ من الغِنى، والسقم أحبّ إليّ من الصحة. فقال رضي الله عنه: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتّكل على حُسْنِ اختيارِ الله له لم يتمَنَّ أنه في غير الحالة التي اختارها الله تعالى له.

حكي أن جماعة دخلوا على الشبلي وهو في المارستان مُقَيَّد، فنظر إليهم وقال: أيش أنتم؟ فقالوا: أحباؤك، فرماهم بالحجارة فهربوا، فقال: يا كَذَّابين تَدَّعُونَ مَحبّتي ولا تصبرون على مَضَرَّتي ـ أي أذيتي ـ ابعدوا عني.

ومن آدابهم: أن لا يتماوت ولا يعجز بل يتجلد ويصبر.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**المُؤمِنُ القويُّ أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فقل مِنْ قَدَرِ الله وما شاء فعل، وإياكَ ولَوْ، فإن لو تفتح باباً من عمل الشيطان**»[1].

وقال ابن عطاء: في أوقات البلاء يتبين صدق العبد من كذبه فمن صَبَر في أوقات الرخاء، وجزع في أوقات البلاء فهو من الكذابين، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ١ ـ ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محَمَّد: ٣١] ثم إن البلاء في الإنسان بمنزلة الدَّباغ يَسْتَخرِجُ الرُّعُوناتِ [الأوساخ] ويُصَيِّرهُ إلى حالة يمكن الاستفادة منه.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: البلاء سِرَاج العارفين، ويقظة المريدين، وهلاك الغافلين.

وحُكِيَ أن جعفر الصادق عليه السلام كان إذا أصيب يقول: اللهم اجعله أدباً ولا تجعله غضباً. وذلك لأن البلاء منه ما يكون تمحيصاً، ومنه ما يكون تأديباً، ومنه ما يكون اختباراً، ومنه ما يكون عقوبة وخذلاناً.

وقال الجريري: البلاء على ثلاثة أوجه: على المخلطين نقمٌ وعقوبات، وعلى المذنبين تمحيص للجنايات، وعلى الأنبياء والصديقين من صدق الاختبارات.

ولا يمكن الوقوف على آدابهم وسيرهم فيه إلا بذكر حكاياتهم.

فقد سئل الجنيد: ما فائدة المريدين في الحكايات؟ فقال: إنها تُقَوِّي قلوبَهم. فقيل: هل في ذلك حجة من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم. قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هُود: ١٢٠].

* * *

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب في الأمر بالقوة وترك العجز..، حديث رقم (٢٦٦٤) [٤/ ٢٠٥٢] وابن حبان في صحيحه، ذكر الزجر عن أن يستعمل المرء في أسبابه اللو..، حديث رقم (٥٧٢١) [١٣/ ٢٨] ورواه غيرهما.

فصـل
في ذكر آدابهم في الرُّخص

قال النبي ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أنْ تُؤْتَى رُخَصُه كما يُحِبُّ أنْ تُؤْتَى عَزَائِمُه**»[١].

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ: مَا بَالُنَا نَقْصُرُ الصلاةَ وقَدْ أمِنَّا؟ فقال: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُم ألاَ فاقْبَلُوا صدقَتَه**»[٢]. والرُّخْصَةُ مَنْهَلٌ يَرِدُ عَلَيْهِ المبتدىء مِن المُرِيدِين، ويتحيَّر فيه المتوسط من السالكين، ويستريح إليه الفائز من العارفين، ولا يستوطن فيه المتحققون؛ لأنه وادٍ مُتسعٌ كثيرُ الآفات إلا على نيّة الرَّحِيل اضطراراً، فالمُرْتِعُ في جانبِ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يواقع الحِمَى؛ لأن حمى الله اتقاءُ محارِمِه؛ وكل من انحطّ عن درجة الحقيقة وقَع على طريق الرُّخْصَة، ومن سقط منها وقع في الضلالة والجهل.

والترخص في مذهب الصوفية هو الرجوع عن حقيقة العلم إلى ظاهر العلم، وذلك نقص في أحوالهم.

سئل بعض المشايخ عن سوء أدب الفقير، فقال: انحطاطه عن درجة الحقيقة إلى الظاهر؛ ولذلك قال ذو النون المصري: رياء العارفين إخلاص المريدين.

وسئل عن ذنوب المقربين فقال: حسنات الأبْرَار سيِّئَاتُ المقربين.

رُئي الجنيد بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وبخني على كلمة كانت سبقت مني؛ وذلك أنَّ سنةً احتبس فيها المطر فقلت: مع الناس: ما أحوَجَ الناس إلى المطر؛ فقال: وما يدريك أن الناس يحتاجون إلى المطر؟ تُعَلمني؟! إني عليم خبير، اذهب قَدْ غَفَرْتُ لك.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي عليه السلام فقيل: مات فلانٌ من أهل الصُّفَّة، وترك دينارين ـ أو درهمين ـ فقال: «**كيَّتان، صلّوا على صاحبكم**»[٣].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يستحب للمرء..، حديث رقم (٣٥٤) [٢/ ٦٩] والبيهقي في سننه الكبرى، باب من ترك المسح على الخفين..، حديث رقم (٥١٩٩) [٣/ ١٤٠] ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٦) [١/ ٤٧٨] وابن خزيمة في صحيحه، باب ذكر الدليل على أن الله عزّ وجل قد يبيح الشيء في كتابه..، حديث رقم (٩٤٥) [٢/ ٧١] ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة، من حديث بريد بن أصرم برقم (٤٠٢) [٢/ ٢٢] والطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة، حديث رقم (٧٦٥٤) [٨/ ١٥٠].

وقد صحّ أن من الصحابة من مات وخلّف مالاً جمًّا لم يُنكر عليه، وإنما أنكرها هُنَا لأنه خالف معنى دعواه. ألا ترى أن الصلاة طاعة ولكن من كان مُحْدِثاً أو قَرَأ جُنُباً استحق المقتَ والعقوبة، وقوله عليه السلام: **«مَنْ تَشَبَّهَ بقوم فهُوَ مِنْهُم»**(١) أراد التشبه بسيرتهم لا بِلِبْسِهِمْ؛ لأنه روي عنه ﷺ أنه قال: **«من تهيأ للناس بقوله ولباسه وخالف ذلك أعماله فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين»**(٢).

ثم إن لهم في رخصهم أدباً وأخلاقاً يحتاج المترخص إلى معرفتها والتمسك بها ليكون مترسماً برسمهم ومتحلياً بحليتهم إلى أن يبلغ مقامات المتحققين وأحوالهم.

ومن **رخصهم** اتخاذ الصنعة والاستناد إلى العلوم، وأدبهم في ذلك أن لا يَمْتَلِكْهَا بَلْ يجعلها في المصالح، ولا يزيد على نفقة سنة له ولعياله ولمن يمونه؛ اقتداء برسول الله ﷺ. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: كان أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِفْ عليه المسلمونَ بخيل ولا ركاب، فكانت له خاصة، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الكُرَاع وخيل السلاح والعُدَّةِ في سبيل الله عزّ وجل.

ومنها الاشتغال بالكَسْبِ لصاحب العيال أو الوالدين، وأدبهم في ذلك أن لا يشغله ذلك عن فرائض الله تعالى التي أوجبها عليه في أوقاتها، ولا يراه سبباً في الرِّزق. بل هو معاونة للمسلمين، ولا يشتغل بذلك أكثر أوقاته، بل يجتهد أن يجعل أوقات كسْبِهِ من وقت الضُّحَى إلى آخر صلاة الظهر، ثم يرجع إلى مَا بين صحبه فيصلي معهم الخمس، إلى الضحوة المقبلة من الغد، وإن فضل من كَسْبِهِ عن نفقة عياله شيء آثر به إخوانه وأهل صحبته.

ومنها السؤال، وأدبهم في ذلك أن لا يسأل إلا وقت الحاجة قدر الكفاية لمن يمونه، ولا يبذل وجهه لمن يهون عليه رَدُّه؛ قال النبي ﷺ: **«إذا سألت فاسأل الصالحين»**(٣)، ويتلطف في سؤاله من غير تواضع؛ فقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: **«لَعَنَ اللَّهُ فقيراً يَتَوَاضَعُ لِغَنِيٍّ لأجل ماله»**(٤).

---

(١) رواه أبو داود في سننه، باب في لبس الشهرة، حديث رقم (٤٠٣١) [٤/ ٤٤] وابن أبي شيبة في مصنفه، ما قالوا فيما ذكر من الرماح. . ، حديث رقم (٣٣٠١٦) [٦/ ٤٧١] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، من حديث أبي ذر برقم (٥٤٤٩) [٣/ ٤٦٧] والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٤٤٤).

ويروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه قال في ذلك المعنى:

لاَ تَخْضَعَنَّ لمخلوقٍ عَلى طمَعٍ فإن ذلك وَهْنٌ مِنْكَ فِي الدين
واستغنِ باللّهِ عَن دُنْيَا الملوكِ كَمَا اسـ ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدين
واستَرْزِق اللّهَ مما في خزائنه فإنَّ ذلك بين الكاف والنون

وما يحصل من سؤاله لا يدعه في مِلْكِهِ بل يسلمه عِيَالَه ليُفرغَ قلبَه عن شغلهم، ولا ينفقه بالسرف، ولا يجعل ذلك عادة ومعلوماً له.

ومنها الاستدانة على الله عزّ وجل، وأدبهم فيها أن يكون ذلك لمصالح الإخوان، وعند الضرورة، ولا يغفل عن الاهتمام بالتَّوَجُّهِ والأداء.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أدان ديناً وهو ينوي أداءه وقضاءه، ومات ولم يترك وفاءً قضى الله تعالى لغريمه يوم القيامة»**(١).

ومنها حمل الزاد في الأسفار، وأدبهم في ذلك أن لا يبخل به على مَن هو في صحبته مِمَّن يحتاج إليه.

روي أن النبي ﷺ كان في سفر فأمرَ أن يُنَادى: **«ألاَ مَنْ كان معه فَضْلُ زاد فليعد به على من لا زاد له، ألا من كان له فضل ظهر فليعد به على مَنْ لا ظهر له»**(٢). فذكر من الأصناف ما ذكر حتى ظننا أنه ليسَ لنا في فضلِ الذي في أيدينا حقٌّ.

ومنها الحج عن الغير بالأجرة، وأدبهم في ذلك أن لا يفعلِ ذلك إلا عند الضرورة، ثم يجعل نفقته في ذهابه وقفوله من ذلك لا مِنَ السؤال ولا من الأوْقَاف؛ قال النبي عليه السلام: **«مَنْ حَجَّ عن مَيْتٍ كُتِبَ للمَيِّت حجة وللحاج براءة من النار»**(٣).

---

(١) رواه بألفاظ متقاربة البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في جواز الاستقراض. . ، حديث رقم (١٠٧٣٩) [٥/ ٣٥٤] والطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة، حديث رقم (٧٩٤٩) [٨/ ٢٤٣] ورواه غيرهما.

(٢) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب استحباب المواساة بفضول المال، حديث رقم (١٨٢٨) [٣/ ١٣٥٤] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن أثر النعمة. . ، حديث رقم (٥٤١٩) [١٢/ ٢٣٨] وروى نحوه غيرهما.

(٣) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي هريرة، حديث رقم (٥٨١٨) [٦/ ٦٩] والهيثمي في مجمع الزوائد، بعد المنزل بعد النفر، [٣/ ٢٨٢] وروى نحوه غيرهما.

ومنها الأسْفَار للدوران في البلدان، وأدبهم فيها أن يجعل قصده فيها زيارة أخ في الله، أو استحلال، أو طلب علم، ثم يُحَصِّل في سفره غرضه.

ومنها القيام والحركة في السماع، وأدبهم في ذلك مراعاة الوقت، وترك المداخلة والمزاحمة ما دام الوقت جداً، وإذا كان طَيْبَةً يجوز ذلك على سبيل المساعدة والمطايبة من غير تساكر ولا إظهار حال.

ومنها المزاح وأدبهم في ذلك مجانبة الكذب والغيبة والمحاكاة والسخف، وما يذهب بالمروءة؛ قال النبي ﷺ: **«إنَّ الله تعالى لا يؤاخذ بالمزاح الصادِقَ في مزاحِه»**[١]. وعن علي كرّم الله وجهه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يَسُرُّ الرجلَ من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة.

ويكره الإكثار منه خاصة لذوي الهيئات؛ فقد قيل: لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترىء عليك. وكان النبي ﷺ لا يلتفت إلى أصحابه مخافة أن يراهم يمزحون فيتشوَّرُون. وكان ببعض أصحابه رَمَدٌ وكان يأكل التَّمْرَ فقال له النبي ﷺ: **«أتأكل التمرَ وبك رَمَدٌ»**[٢] فقال: يا رسول الله، إنما آكل بالجانب السليم، فضحك النبي ﷺ.

ومنها إظهار العلوم التي ينبغي استعمالها، وأدبهم في ذلك طلب الإفادة والنصح والإرشاد؛ قال عليه السلام: **«نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرُبَّ رجل حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**[٣].

ومنها لبس المرقعات المعمولة، وأدبهم فيها مجانبة الشُّهْرَة منها، فلا يضيّع أكثر أوقاته بالاشتغال فيها وتلفيق بعضها إلى بعض، والتجاوز في تزيينها؛ فإن ذلك يحصِّل تفويت الوقت بلا فائدة دينية ولا دنيوية. وكان بعض المشايخ إذا رأوا الفقير تجاوز في تزيين مرقعته ولباسه ازْدَروه حتى قال بعضهم: لمّا فَقدُوا الفائدة من بواطنهم اشتغلوا بالظواهر وتزيينها. ورأى النبي عليه السلام عَلَى بعض الوفود ثِيَاباً رَثَّة فقال: **«ألكَ مالٌ؟»** قال: نعم. قال: **«فَلْيُرَ عليك»**[٤] قال: فَيُسْتَحَبُّ في ذلك التوسط.

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) روى نحوه الحاكم في المستدرك، ذكر مناقب صهيب بن سنان..، حديث رقم (٥٧٠٣) [٣/ ٤٥١].

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب العلم، حديث رقم (٢٩٧) [١/ ١٦٤] وابن ماجه في سننه، باب من بلغ علماً، حديث رقم (٢٣٠) [١/ ٨٤] ورواه غيرهما.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (٦٥) [١/ ٧٦].

ومنها المعانقة عند الملاقاة، وتقبيل بعضهم بعضاً، وأدبهم فيه أن يكون ذلك مع أشكالهم وجنسهم وأهل الأنس منهم؛ روى أبو الهيثم بن التيِّهان أنه قال: لَقِيَنِي النبيُّ ﷺ في بعض طُرُقِ المدينة فاعتنقني وقبَّلني، وسئل النبي ﷺ عن أصل المعانقة قال: «**فإنها إثبات المودّة**»(١).

ومنها حب الرياسة وأدبهم فيه أن يعرف قدرَ نفسه، ويعرف حَدَّه، ولا يتمنى فوق قدْرِهِ. ولا ينزل إلا في منزلته؛ فقد قيل: ينبغي للعاقل أن لا يرفع نفسَه فوق قدْرِه، ولا يضعها عن درجته. وقيل: ارتفاع الجاهل فضيحةٌ كارتفاع المصلوب. وقيل: الخمول خير للجاهل من النباهة؛ لأن الخمولَ سَتْرٌ لمعايبه والنباهةَ نَشْرٌ لمثالبه.

ولا يطلب ما لا يناله؛ فإن ذلك يُضَيِّع ما في يده، وقيل: من اقتصر على قدره كان أبقى لجمال وجهه. وقال بعض المشايخ: آخر آفة تخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة.

ومنها التقرب إلى السلاطين والدخول عليهم، وأدبهم فيه أن لا يكون إلى مَدْحِ المادحين ولا يغترُّ بقولهم؛ وإن مُدِحَ بخلاف ما يعرفه من نفسه أعْرَضَ عنه؛ قال الله تعالى ذامًّا لمن أحب أن يحمد بما لم يفعل: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٨] وفيه دليل على أنه من أحب أن يُحْمَد بما يَفْعَل لَمْ يَأْثم غير أنه مخوف، وليقل عند ذلك: اللهم اجعلني خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ، واغفر لي ما لا يَعْلَمُون، ولا تؤاخذني بما يقولون؛ يروى عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه سمع مَدحَ مَادحٍ فقال: أَنَا دُونَ مَا أظهَرْتَ وَفَوْقَ ما أَضْمَرْتَ.

منها تعيير السفهاء بأسلافهم في حال الضجر، والأدب في ذلك أن لا يكون إلا في مقابلة سوء أدب، ويكون تعريضاً لا تصريحاً؛ روي أن نفراً من اليهود حضروا عند رسول الله ﷺ وآذوه ونقَّصُوا دينه فاشتد عليه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [المَائدة: ٦٠] الآية، فقال النبي ﷺ: «**يا إخوَانَ القِرَدَةِ**»(٢).

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه الطبري في تفسيره في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٧٦] [١/ ٣٧١] وابن كثير في تفسيره تفسير قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٧٦] [١/ ١١٧] ورواه غيرهما.

ومنها إظهار الطاعات والعبادات، وأدبهم فيه أن يكون إظهارها ليتأدّبَ به مريد، أو يقتدي به مُقْتَدٍ، ولا يلتفت إلى قبول الخلق وردِّهم؛ سئل النبي ﷺ عن الجهر بالقراءة والإخفاء فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[1] [البقرة: ٢٧١] الآية. فقلت: هذا في النوافل والفضائل. فأما الفرائض فلا خلاف بين أهل العلم أنَّ إظهارَها أوْلى.

ومنها التبرُّزُ للسرور والنُّزْهَة، وأدبهم في ذلك أن يرتاد خلوة في كهف أو وَادٍ أو موضع يخلو عن أنواع المنكر؛ كي لا يتولَّد منه ما لا يقوم بإزالته، ثم يتشبَّه بأصحابها إن أقام في مواضع المنكر؛ وكان النبي ﷺ يُعْجِبُه النظرُ إلى الْخُضرة والماء الجاري.

ومنها النظر إلى الملاهي، وأدبهم في ذلك مجانبة المُحَرَّمات والمُنْكرات منها، فما حَرُمَ فعْله حَرُم النظر إليه، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت الحبشةُ تلعب وأنا أنظر إليهم من باب حجرة لي، ورسول الله ﷺ يسترني بردائه، فلم ينصرف حتى كنت أنا التي انصرفت[2].

ومنها حضور المجالس التي يجري فيها الخوض في تُرَّهات الكلام وأدبهم في ذلك اجتناب سماع الغيبة، والمناكير منها، روي عن جابر بن سمرة قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مَرَّة، وكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون من أمر الجاهلية، وهو ساكت، وَرُبَّمَا تَبَسَّم معهم[3]

ومنها تناول الأطعمة الطيبة، وأدَبهِم في ذلك أن لا يجعل ذلك عادة بل يكون ذلك بين فاقة سابقة ورياضة لاحقة ليَسْلَم له ذلك. روي عن علي كرّم الله وجهه، أنه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب صدقة العلانية..، [٢/ ٥١٦] والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٧٨٩١) [٨/ ٢٢٦] ورواه غيرهما.

(٢) روى نحوه البخاري في صحيحه، باب نظر المرأة إلى الحبش، حديث رقم (٤٩٣٨) [٥/ ٢٠٠٦] ومسلم في صحيحه، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، حديث رقم (٨٩٢) [٢/ ٦٠٩] ورواه غيرهما.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإباحة للمرء أن ينشد الأشعار..، حديث رقم (٥٧٨١) [١٣/ ٩٦] والترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ في الشعر حديث رقم (٢٤٨) [١/ ٢٠٤].

قال: كان النبي ﷺ يعجبه الثريد. وروي أنه كان يعجبه الطيب والحلوى. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا عرض على أحدكم الطيب والحلوى فلا يردهما حتى يمس منهما»**(١) وقال ﷺ: **«انهسوا اللحم نهساً فإنه أهنأ وأمرأ»**(٢). وقال ﷺ: **«سيد الطعام لأهل الجنة اللحم، وسيد طعام أهل الدنيا اللحم»**(٣).

ومنها رهن الثياب على الطعام، وأدبهم فيه أن لا يكون ذلك إلا عند الضرورة؛ رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي بأوسق من شعير.

ومنها الهرب من الهوان ومن تحمّل الأذى والجفاء، وأدبهم في ذلك طلب سلامة الصّدر، واجتناب المعاداة، قال بعض المشايخ: الفِرَارُ مِمَّا لا يطاق من سُنَنِ المرسَلِين، قال الله تعالى حاكياً عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١]. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: أظلم الظالمين لنفسه من تَواضعَ لمن لا يُكرمه، ورغب في مَوَدَّةِ من لا يَنْفَعه، وقبل مدحَ من لا يعرفهُ. وقال رسول الله ﷺ: **«ليس للمؤمن أن يذل نفسه»**(٤).

ومنها الانبساط إلى الأصدقاء في قصد منازلهم والإلمام بهم من غير استدعاء وأدبهم في ذلك تخصيص من يفرح بذلك، ويعرف موضع ذلك من الإكرام، قَصَدَ النبي ﷺ دار أبي الهيثم بن التَّيِّهان ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقدَّم إليهم ما حَضَر من لَبنٍ وتَمْرٍ، فأكلوا وشربوا، وقال ﷺ: **«هذا من النَّعِيمِ الذي تُسألون عنه»**(٥).

ومنها المعاتبة للإخوان، وأدبهم فيها أن يقصد بذلك إزالة ما وجد عليه من قبَلِه لا التَّشَفِّي بل تطهير القلب من الغِلِّ والحِقْدِ، ويقبل عُذْرَ صاحبه فقد قيل:

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء أنه قال انهسوا. .، حديث رقم (١٨٣٥) [٤/ ٢٧٦] والدارمي في سننه، باب فيمن استحب أن ينهس اللحم. .، حديث رقم (٢٠٧٠) [٢/ ١٤٤] ورواه غيرهما.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده من مسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم (١٤١١) [٢/ ٥٣٦] والبزار في مسنده من حديث جندب بن عبد الله عن حذيفة برقم (٢٧٩٠) [٧/ ٢١٨] ورواه غيرهما.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن على المرء ترك الإغضاء على الشكر للرجل على نعمه قلّت أو كثرت، حديث رقم (٣٤١١) [٨/ ٢٠١] والبيهقي في سننه الكبرى، باب قضاء الدين قبل. .، حديث رقم (٦٤٦٦) [٤/ ١٠٦] ورواه غيرهما.

إقْبَلْ مَعاذِيرَ مَنْ يأْتِيكَ مُعْتَذِراً ... إنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أوْ فَجَرا
فَقَدْ أطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظاهِرُه ... وَقَدْ أجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا[١]

وقيل: ظاهر العتاب خيرٌ من مكنون الحقد وروى قُنْبُر مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: دخلت مع عليٍّ علَى عثمان رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين، فأحَبَّ الخلوة فأومأ إلي علي كرَّم الله وجهه بالتنحي، فتنحيت ناحيةً، فأخذ عثمان يعاتب علياً وهو مطرقٌ لا يتكلم، فقال: لِمَ لا تتكلم؟ قال: إن قلتُ لَمْ أقُلْ إلا مَا تَكْرَه، وليس لك عندي إلاَّ ما تُحِبُّ.

وحُكِيَ أن يحيى بن خالد عاتب عبد الملك بن صالح في شيء كان بينهما. فقال في ضمن كلامه: إنك لحقود. فقال له: إن كان الحقدُ عندك بقاء الخير والشّر في القلب. فإنهما الثابتان عندي. فلما تراضيَا وقام عبد الملك قال يحيى: هذا أجَلُّ قريش، وما رأيت أحداً زينَ الحقدَ بعبارته حتى أذهب سماجته غيره.

ومنها مدح الممدوح، وذَمّ المذموم، وأدبهم في ذلك أن يحفظ حدود الحقِّ في الجانبين، ولا يتجاوزه إلى متابعة النفسِ والقول بالهوى، رُوِيَ أن رجلين من سادات العرب حضرا مجلسَ رسول الله ﷺ، فمدح أحدُهُمَا صاحبَه وأطراه، وقصَّر صاحبُه في تطريته فوجد عليه من ذلك، فأخذ يذكر مثالبه، فأنكر النبيُّ ﷺ ذلك منه، فقال: يا رسول، والله لئن صدقتُ في الأولى ما كذَبْتُ في الأخرى، والإنسان لا يخلو من مناقب ومثالب، والراضي لا يرى المثالب، والساخط لا يرى المناقب. فقال النبي ﷺ: «**إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحراً**»[٢].

ومنها هجران من يستحق ذلك، وأدبهم فيه أن يقصد إظهار الحق وتمحيق الباطل، والمعاداة في الله عزّ وجل؛ هجر رسول الله ﷺ كعبَ بن مالك وصاحِبَيْه لتخلُّفِهم عن غزوة تَبوك، وأمر أصحابه بهجرانهم وترك مجالستهم ومكالمتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] الآية.

---

(١) البيتان من البحر الطويل وهما للشاعر العباسي الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري شاعر كبير يقال لشعره سلاسل الذهب وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام إضافة إليه ولد بمنبع بين حلب والفرات سنة ٢٠٦هـ وتوفي فيها سنة ٢٨٤هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب الخطبة، حديث رقم (٤٨٥١) [٥/١٩٧٦] وباب إن من البيان سحراً، حديث رقم (٥٤٣٤) [٥/٢١٧٦] ورواه أبو داود في سننه، باب ما جاء في المتشدق في الكلام، حديث رقم (٥٠٠٦) [٤/٣٠٢] ورواه غيرهما.

ومنها تحريق المرقعات على أصحابها المزورين، والأدب في ذلك أن يقصد إبطال تَمْويهَاته وخيانته وخديعته وتلبيسه قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النّحل: ٩٤] أي مكراً وخديعة؛ ومنزلتها منزل الشعر المزوّر على منتحل نَسَبِ الشَّرفِ، وأنه من أولاد العلوية، فيجب إنكار ذلك؛ وإظهار فسادِ ما ادّعاه من النسب؛ لئلا يَغْتَرّ بهم من لا يعرفهم، أمر النبيّ ﷺ بهَدْم المسجد الذي اتَّخذُوه ضِرَاراً وكُفراً وتَفْرِيقاً بين المؤمنين، وإحراقه لَمَّا عَلِمَ قصدَهم اتخاذَ ذلك، وإن كان ظاهره مسجداً، قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [التّوبَة: ١٠٨] الآية.

وأمر بقطع نخل بني النضير، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحَشر: ٥].

ومنها استجازة الكَذِبِ في المصالح، وأدبهم فيه طلب الإصلاح وإظهار الحقّ. قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وفي قصة داود عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] حُكِيَ أن جعفر الصادق رضي الله عنه نَاظر مُرْجئاً عند أبي جعفر المنصور فقال جعفر: أتى النبيُّ ﷺ بمرجىء فأمر بقتله؛ فقال المرجىء مجيباً له: وأين كان الإرجاء في عهد رسول الله ﷺ؟ فقال جعفر: فدينٌ لم يكن في عهد رسول الله ﷺ فمن أين جئت به؟ ثم قال: فيمَ استجزت الكذب على رسول الله وقد قال: «**مَن كَذَبَ علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1]؟ فاحتجّ جعفر بقصة إبراهيم، وقصة داود عليهما السلام، فانقطع المرجىء.

ومنها زيارة العجائز، وأدبهم في ذلك أن يكون قصده التقرب إلى الله تعالى، والتزاور في الله، وطلب البركة والدعاء، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: قوموا بنا نزور أم أيْمَن كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

ومنها التكلف مع أبناء الدنيا والرؤساء والسلاطين، والقيام لهم وحسن الإقبال عليهم، وأدبهم في ذلك أن لا يكون طَمعاً في دُنياهم ولا لاتّخاذ جاه عندهم: كان

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من النياحة على الميت..، حديث رقم (١٢٢٩) [١/ ٤٣٤] ومسلم في صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣) [١/ ١٠] ورواه غيرهما.

رسول الله ﷺ تدخل عليه ساداتُ قريش فيكرمُهُم ويبجّلُهم ويُحْسِن مجالستهم وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[١].

ومنها البكاء عند المصيبة، وأدبهم في ذلك أن يكون ذلك من غير نَوْحٍ ولا رَفْعِ صَوْت؛ بكى النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم، وقال: «العين تَدْمَع والقَلْب يَحْزَن، ولا نقولُ ما يُسْخِط الرَّب وإنَّا بِكَ يا إبراهيم لَمَحْزونُون».

ومنها صحبة الأحداث، وأدبهم في ذلك ما قد مضى ذكره في باب أدَب الصحبة.

ومنها إظهار البِشْرِ عند من يكْرَهُه قَلْبُه، وأدبهم في ذلك أن يكون القصدُ فيه طَلَبُ السلامة لا رياء فيها ولا نفاقاً؛ روت عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال: «بئس أخو العشيرة» ثم أذن له، فلما دخل ألانَ له القولَ، فتعجَّبْتُ من ذلك. فلما خرج سألته عن ذلك فقال: «يا عائشة إن من شر الناس من يكرمه الناسُ اتقاءَ فُحْشِه»[٢] وينشد الشافعي رضي الله عنه يقول:

إنـي أُحـيِّـي عَـدُوِّي عِـنْـدَ رؤْيـتِـهِ ... لأدْفَـعَ الـشَّـرَّ عَـنِّـي بـالـتـحـيَّـاتِ
وأُظْـهِـرُ الـبِـشْـرَ لـلإنـسَـان أبـغـضَـه ... لأنـه قـد حـشـا قـلـبـي مَـوَدَّاتِ
لـمَّـا عَـفَـوْتُ ولـم أحْـقِـدْ عـلى أحـدٍ ... أرَحْـتُ نَـفْـسِـيَ مِـنْ هَـمِّ الـعـدَاوَاتِ

ومنها مقارفة أوباش الناس على أقدارهم ومقدار عقولهم، والأدب في ذلك طلب السلامة من غوائلهم، وينشد في ذلك المعنى:

وأنـزلـنـي طـول الـنـوى دار غُـرْبَـةٍ ... إذا أنـا لاقَـيْـتُ الـذي لا أشـاكـلـه
فَـحَـامَـقْـتُـه حـتـى يُـقَـالَ سـجـيَّـةً ... ولـو كـان ذا عـقـل لـكـنـت أعـاقـلـه[٣]

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، باب إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، حديث رقم (٣٧١٢) [٢/ ١٢٢٣] والبيهقي في السنن الكبرى، باب ما على السلطان من إكرام. . ، حديث رقم (١٦٤٦٣) [٨/ ١٦٨] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: المداراة مع الناس، حديث رقم (٥٧٨٠) [٥/ ٢٢٧١] ومسلم في صحيحه، باب مداراة من يتقى فحشه، حديث رقم (٢٥٩١) [٤/ ٢٠٠٢] ورواه غيرهما ونصه: «يا عائشة إن من شر الناس عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه».

(٣) البيتان من البحر الطويل وهما من قصيدة طويلة بلغت واحداً وستين بيتاً للشاعر العباسي عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة التميمي السعدي أبو نصر، من شعراء سيف الدولة بن حمدان، ولد سنة ٣٢٧هـ وتوفي ببغداد سنة ٤٠٥هـ.

ومنها الاعْتِضَادُ بالسفهاء للملمات ودفع المضرَّات، وأدبهم فيه أن يقصد بذلك صيانة نفسه وماءَ وجهه عن مواجهة غير أشكاله؛ قال الأحنف بن قيس: أكرموا سفهاءكم فإنهم يَقُونكم النارَ والعارَ؛ وروى ابن سيرين قال: كان عمر رضي الله عنه يعجبه أن يصحبه سفيهٌ لِيَرُدَّ سفهَ السفيه عنه، وأنشد بعضهم في المعنى:

تعدو الذِّئابُ على مَنْ لا كلاب له ... ويُتَّقى مربض المستأسد الحامي

ومنها ذكر من فيه عيبٌ بما يكره، وأدبهم فيه أن لا يذكروا عُيوبَ الناس إلا ما اشتُهر منها، لئلا يكون هتكَ حرمة مستورة؛ روت عائشةُ رضي الله عنها وعن أبيها أنها كانت عند النبي ﷺ فدخل عُيَيْنَةُ بن حصن من غير إذن، فقال ﷺ: «**أين الاستئذان؟**» فقال: لمْ أستأذِنْ على رجل من مُضَر منذ أدركت، فلما خرج قلت: مَن هذا؟ فقال: «**أحمق مطاع**»(١) وقال النبي ﷺ: «**أمر المستشير في أمر المخاطبين، أما فلان فشحيح، وأما فلان فلا يضع عصاه عن عاتقه**»(٢). وقال ﷺ: «**إن صفوان خبيث اللسانِ وطيب القلب**»(٣).

ومنها مواساة الشعراء وأمثالهم، وأدبهم في ذلك أن يقْصِدَ صِيَانَةَ عِرْضه عنهم، وسلامة دينه منهم، وإعطاء سؤلهم أو بعضَ مأمولهِم لكي لا يتأثَّموا عليه؛ قال النبيّ ﷺ: «**ما وَقى الرجلُ به عرضَه فهو صدقة**»(٤).

وروي أن بعض الشعراء حضر عند رسول الله ﷺ فأنشد شعراً ذكر فيه قسمة الغنائم يوم حنين وقال:

أتجعل نهْبي ونَهْب العبيـ ... ـدِ بينَ عُيَيْنَةَ والأقرع

فقال النبي ﷺ: «**اقطعوا عَنّي لِسَانَه**»(٥). فأُعْطِي خمساً من الإبل. وروي أن

---

(١) رواه الدارقطني، كتاب النكاح، حديث رقم (٣) [٣/٢١٨] وابن أبي شيبة، ما ذكر في الحياء. . ، حديث رقم (٢٥٣٣٩) [٥/٢١٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، حديث رقم (١٤٨٠) [٢/١١١٤] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن هذا الزجر. . ، حديث رقم (٤٠٤٩) [٩/٣٥٦] ورواه غيرهما.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن سعد مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم (٥٤٩٥) [٦/٥٤] والشاشي في مسنده، عن الحسن عن سعد، حديث رقم (١٧٦) [١/٢١٦] ورواه غيرهما.

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده، عن جابر، حديث رقم (٢٠٤٠) [٤/٣٦] والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٣٤٩٥) [٣/٢٦٤] ورواه غيرهما.

(٥) رواه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار، برقم (٧١١ الحديث التاسع عشر) [٢/٢٧١].

كعب بن زُهَير كان قد هجا النبيَّ ﷺ، فكان قد أهْدَرَ دمَه، ثم أتاه مُسْلِماً ومدَحَه بالقصيدة المعروفة فقال فيها:

أنـبـئـت أن رســول الله أوعـدنـي والـعَـفْـوُ عِـنـد رسـول الله مـأمـول

فكساه بُرْدَته وهي التي اشتراها معاوية من ابن كعب، وهي التي كانت تلبسها الخلفاء.

ومنها نَهْبُ النِّثَار، وأدبهم فيه مجانبة الشَّرَه، وأن يقصد إدخال السرور على صاحبه؛ روي عن معاذ بن جَبَل رضي الله عنه قال: شهدت إملاك رَجُلٍ من الأنصَار مع رسول الله ﷺ، فخطب النبيُّ ﷺ، وأملك الأنصاري، ثم قال: على الأُلْفَةِ والخَيْرِ والطائر الميمون، دَفِّفُوا على رأس صاحبكم، وأقبلَت السلاَلُ فيها الفاكهةُ والسكر يُنْثَر عليهم، وأمسكَ القومُ ولم يَنْهَبُوا، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أزينَ الحلمَ ألا تنهبون؟»** فقالوا: يا رسول الله، إنك نَهيْتَنَا عن النهب يوم كذا وكذا، فقال: **«إنما نهيتكم عن نَهب الغنائم ولم أنهَكم عن نَهب الوَلاَئم»** ثم قال: **«ألا فانتهبوا»** قال معاذ: «لقد رأيته ﷺ يَجُرُّنا ونَجُرُّه في ذلك النّهاب»(١)

ومنها الافتخار وإظهار الدعوى، وأدبهم فيه أن يقصد به إظهار نعم الله تعالى عليه. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١] ويكون ذلك عند غلبات الحال، ومفاخرة ضدّ، قال رسول الله ﷺ: **«أنا سَيدُ ولد آدم ولا فخر، وآدم ومن دونه تحت لوائي، لو كان موسى حيًا لما وسعه إلا اتباعي»**(٢). وكان إذا رجع إلى نفسه يقول: **«أنا ابن امرأة كانت تأكل القَدِيدَ»**(٣) **«إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد»**(٤)، **«هوِّن عليك فلست بملِك، إنما أنا عبد»**(٥). وأما عند الضد فرُوِي أن رسول الله ﷺ لما أتاه وفد بني تميم بخطيبهم وشاعرهم ليفاخروه دعا النبيَّ عليه السلام

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، عن معاذ بن جبل [٤/ ٢٩٠] والعقيلي في الضعفاء باب الألف، حديث رقم (١٧٤) [١/ ١٤٢].

(٢) روى القسم الأخير منه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (١٧٦) ورواه غيره وروى القسم الأول منه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب منه في الشفاعة [١٠/ ٣٧١] ورواه غيره.

(٣) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم (٦٩٤٣) [٤/ ٣٢٤].

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الأكل متكئاً، حديث رقم (١٤٤٢٨) [٧/ ٢٨٣] وأبو يعلى في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (٤٩٢٠) [٨/ ٣١٨] ورواه غيرهما.

(٥) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم (٦٩٤٣) [٤/ ٣٢٤].

بثابت بن قيس وكان خطيبَه، فأجاب خطيبهم وغلبهم، ودعا حسَّان بن ثابت رضي الله عنه وكان شاعره، فأجاب شاعرهم، وذكر في قصيدته:

بَنِي دَارِمٍ لاَ تَفْخَرُوا إنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبالاً عِنْدَ ذِكْرِ المَكَارِمِ
هَبِلْتُمْ علينا تَفْخَرُونَ وأَنْتُمُ ... لنَا خَوَلٌ من بين ظِئْرٍ وَخَادِمِ

فقال النبي عليه السلام: **«لقد كنتَ غَنِيًّا يا أخَا دَارِمٍ أن يُذْكَرَ مِنكَ ما ظَنَنْتَ أن الناس نَسوه»** وكان قوله ﷺ أشدّ عليهم من شعر حسان، فقاموا مَغْلُوبين مقهورين، ثم أسلموا فأحسَنَ إليهم وكساهم.

ومنها الحرد والضجر عند وجود المِحَال وما لا يحبُّ احتماله قَولاً وفعلاً، وأدبهم في ذلك أن يجتنب الفُحْش والبَذَاء، ويحفظ حدود الحقّ، ولا يتجاوزه إلى ظُلم، فإن الغضب إذا استولى غَلَبَ على العقل؛ قال الله تعالى: **﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾** [النساء: ١٤٨] وقال ﷺ: **«من استجهر مؤمناً فعليه وِزْرُه»**[1]. وقال الشافعي رحمه الله: «من اسْتُغْضِبَ فلم يَغْضَبْ فهو حمار»[2] وقال الله تعالى: **﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾** [الشورى: ٣٩] وقيل في التفسير: كانوا يكرهون أن يُسْتَذَلُّوا، وكانوا إذا قدروا عَفَوْا؛ وقال الله تعالى: **﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾** [الشورى: ٤١].

ويجتهد أن لا يَغْضَب لنفسه، بل يكون ذلك غيرةً للحق سبحانه وتعالى والإخوان؛ روي أن النبي ﷺ لَمْ يَنتَقِم لنفسه قَط إلا أنْ تُنْهَكَ محارِمُ الله فينتقم لله تعالى. قيل لبعضِ الحكماء: إنك تحتمل في نفسك ولا تحتمل في صديقكَ. فقال: لأن احتمالي في نفسي حِلْمٌ، واحتمالي في صديقي لؤم. قال الشيخ الإمام ضياء الدين شيخ الإسلام صاحب الكتاب رضي الله عنه: وهذا ما حضرني في الوقت من آدابهم في الرُّخَص؛ ذَكَرتُها على الاختصار دون الإكثار، وأنا أبرأ إلى الله تعالى من الزلل والغلط، وأسأله التجاوُزَ عن ذلك **﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [هود: ٨٨]. ثم إن المذهب له أحوالٌ، ومقاماتٌ، وأخلاق ورخص، وآداب؛ فالرخص أدناها، فمن تمسك بالكُلّ فهو من المتحققين، ومن تمسك بالظاهر من الأخلاق والآداب فهو من المترسمين، ومن تمسك بالرخص فهو من المتشبهين الصادقين الذين ألحقهم النبي ﷺ بهم بقوله: **«ومَنْ تشبه بقوم فهو منهم، ومَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قوم فهو**

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) هو من كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٩١٦٣) [٦/٥٢٧] ورواه الذهبي في سير أعلام النبلاء، [١٠/٤٢] ورواه غيرهما.

منهم»[١] هذا إذا لازم الأصول الثلاثة التي أجمع المشايخ ـ رحمهم الله ـ عليها، وهي: أداء فرائض الصلاةِ عسيرها ويسيرها، واجتناب المحارم صغيرها وكبيرها، وترك الدنيا على أهلها قليلها وكثيرها إلا ما لا بد منه للمؤمن منها، وهي ما استثنى رسول الله ﷺ منها فقال: «**أربع من الدنيا وليست منها: كِسرة تسد بها جوعتك، وخرقة تواري بها عورتك، وبيت يكنكَ من القر والحر، وزوجة صالحة تسكن إليها**» وما سوى ذلك فليس له فيه حق.

قيل للجنيد: وما تقول فيمن لم يبقَ فيه إلا مقدار مص نواة، هل يقع عليه اسم التصوف؟ فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم فمن لازمها فهو من المبتلين في المذهب. وعليه أن يجد ويجتهد في طلب الزيادة، والارتقاء إلى معالي الأحوال؛ ليصير من المتحققين؛ فقد قال بعض المشايخ: مَنْ شقّ عليه ركوبُ الأهوال لم يَرْتَقِ إلى معالي الأحوال، ومَنْ لم يرتقِ إلى معالي الأحوال لم يبلغ مراتب الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦﴾ [الجن: ١٦].

ومن جانب الأصول أو بعضها، أو انحط عن درجة الرخصة فترك ما ذكرنا من آدابها فقد فارق المذهب، ونأى بجانبه، وحرم عليه أرفاقهم وأوقاتهم، ويلزم الجماعة مفارقته وهجرانه، وإبعاده وخذلانه. ومن داهنه منهم في شيء من ذلك فهو شريكه في عاره، ولا عذر له فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

جعلنا الله تعالى وإياكم من الصادقين، وألحقنا بالمتحققين بمنّه وجوده، وعصمنا من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ووفقنا لطلب مرضاته، ما خفي منها وما علن، ونفعنا وجميع المسلمين بما جمعنا، ولا جعله علينا ولا على من نظر فيه وبالاً، ولا جعل حظنا من ذلك جمعه وحفظه دون استعماله ومتابعته، بجوده وسعة رحمته؛ إنه عزيزٌ توّابٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ كَرِيمٌ وهَّاب.

تمّ الكتاب المبارك بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
والحمد لله وحده، وصلّى الله على من لا نبي بعده
محمدٍ وآله وصحبه وسلم

(١) رواه أبو داود في سننه، باب في لبس الشهرة، حديث رقم (٤٠٢٩) [٤/ ٤٣] وابن أبي شيبة في مصنفه، ما قالوا فيما ذكر من الرماح، حديث رقم (٣٣٠١٦) [٦/ ٤٧١] ورواه غيرهما.

دَاعِي الفَلَاح
إلى سُبُل النَّجَاح

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المرصفي

المتوفى سنة ٩٦٦هـ

ضبطه وصححه وعلّق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

[مقدمة المؤلف]

يقول الفقير إلى عفو الله ولطفه الخفي، محمد المدعوّ زين العابدين العُمري، سبط العارف بالله تعالى الجليل علي بن خليل المرصفي، أعاد الله عليَّ وعلى المسلمين من بركاته إنه على ذلك قدير، وبعباده خبير، وبالإجابة جدير.

الحمد لله الذي آتى أولياءه من أئمة علمائه، وأسبغ عليهم نعماً، ومنحهم يقيناً وعَزْماً، وجرّد قلوبهم عن النوى فلم يهممهم سواه هماً. وأشهد أن لا إله إلا الله، المنفرد ذاتاً وصفاتاً وقِدَماً، الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرئياً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، خُلاَصَة الخلاصة روحاً وجِسْماً، وأرجح الناس عَقْلاً وحِلْماً، وأوفرهم علماً وفَهْماً، وأقواهم يقيناً وعزماً، اللّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً وسَلاماً دائمين ما دام ملك اللّهِ الأعزِّ الأحمى، وارضَ عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين يا رب العالمين.

أما بعد. . . فقد سألتني أيها السائل ـ أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، وأنالني وإياك مقاماتِ أهل التمكين ـ عن الزهد وتجريد الظاهر بخشونة العيش والثياب، هل هو ركن يعتمد عليه في طريق الصوفية؟ فقد رأيت مَنْ تناهى فيه إلى كشف العورة، والرأس، وغير ذلك. وما معناه؟.

وما هو الشيخ المربي والمريد والمهذب والمزكي وأدبه؟ وما سلسلة طريق الجنيد والشاذلية، وهل لك بالطريقين وصلة، أو بأحدهما أم لا؟.

وما هو التصوف؟ وما هو الصوفي؟ وما الفرق بين التصوف والفقر؟ والزهد والصوفي والمتصوف والمتشبِّه؟ فرأيتُ الكلام في ذلك يستدعي طولاً، فشرعت في

الجواب عن ذلك في جزء لطيف؛ لينتفع به السائل وغيره مِمَّن يقف عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ وسميته **دَاعِي الفلاح إلى سُبُل النجاح**.

فأقول مستمداً من الله العون على الجواب، فإنه المانح الوهّاب:

[أحكام تجريد الظاهر والباطن](*):

اعلم ـ علّمك الله منه وفهّمك عنه ـ أنَّ التجريد قسمان: تجريد الظاهر، وتجريد الباطن.

فتجريد الظاهر على ثلاثة أقسام:

الأول: المتناهي فيه إلى كشف العورة، وهو لا يجوز فعله اختياراً باتفاق أئمة المسلمين. وفاعل هذا قد تعرض بنفسه للمقت في الوقت كما بَيَّنَتْه السُنّة الشريفة. وطرائق القوم المُرضية لا يعرج أهلها بأنفسهم ولا بمريديهم عن جَادَّةِ الشرع مَرَّة بل ولا ذَرَّة، وإنما يعضون علَيْها بالنواجذ كما أمرهم الشارع ـ ﷺ ـ؛ إذ علامَة المُحِبُّ اتباع المحبوب في أقواله وأفعالِه. وجزاء هذا التعزير الشرعي؛ حتى يرجع عن هذه المعصية. نعوذ باللّهِ من الزلاّت، والوقوع في المنكرات. فمن ادعى التحقيق وعاد عن سنَن الطريق فهو زنديق.

الثاني: هو تجريد الظاهر عن ما سوى العورة: ككشف الرأس والبدن والأكل في الأسواق ونحو ذلك.

فهذا مما يُعد عند علماء الظاهر مسقطاً للمروءة إن لم يكن بعضه لائقاً به.

ورؤوس العارفين المتقين لا يجدون ذلك شيئاً، لكن العارفون يختلفون على قدر هممهم وأحوالهم في التربية، على اختلاف أخلاق المريدين، فمنهم المربِّي بالحال فقط أو به أو بالقال، والمريد بين أيديهم في البداية؛ كالمريض بين يدي الطبيب ينظر ماذا يناسب داءه من الدواء المُبقي لصحته أو المفيد لها. وقد قالوا: العارف ما وُجِد فيه ثلاثة: دين الأنبياء وسياسة الملوك، وتدبير الأطباء، فربما رأى من دواء النفس التي انطبعت فيها الأوصاف المذمومة ـ كالكبر، والعُجْبُ والفخر، ونحو ذلك ـ التخلق بهذا.

القسم الثاني: لِتعودَ النفس بالقوى الروحاني إلى ضد هذه الأوصاف.

(*) ما بين معقوفتين من زيادات المحقق.

فتخلق بالتواضع الذي هو ضد التكبُّر وبالفقر إلى الله تعالى الذي هو ضد الفخر إلى غير ذلك من الأوصاف المحمودة؛ كما حكي عن بعضهم أنه قدم عليه رجل مِن ذوي النفوس وسأله التربية. فقال له: بعد أن تأخذ في عُنقك زمبيلاً مملوءاً من الجوز الصغير الحجم وتمشي في الأسواق منادياً الصبيان، ألا من صفعني في عنقي صفعة أعطيته جوزة؛ حتى تفرغ الجوز كله. فإذا فعلت ذلك صحبتك، فأبى. فقال له: أنت لا تصلح للصحبة، ونحو هذه الحكاية كثير يحكى عن السلف في كُتبهم رضي الله عنهم.

والسادات ـ رحمهم الله تعالى ـ إنما قصدهم بذلك التحلي بمحاسن الصفات.

[التحلي بمحاسن الصفات]:

التي هي عدة السفر المعينة عليه؛ كالتواضع، والخشوع، والخضوع، والجوع، وترك الشهوات، ومجاهدة النفس بأنواع المخالفات، بحملها على الطاعات، وترك المنهيات والحظوظ المباحات، والصمت، والمراقبة، والتقوى، والحزن، والمحاسبة، والتيقظ من الغفلات، وعمارة الأوقات بحضور القلب، وحفظ الأنفاس والخطوات، والقناعة، والفتوة، والإيثار، والجود، والسخاء، واليقين، والإخلاص، وحسن الخلق، والأدب، والاستقامة، والغيرة في الدين، والتصوف، والعبادة، والعبودية، والافتقار، والتوحيد، وحسن الاستماع، والإرادة، والتفويض، والتسليم وترك الاختيار، وحسن الطاعة، وحسن النية، وحسن الظنّ، والإحسان، ورؤية المنّة، والاحتساب، والخشية، وسلامة الصدر، والأمانة، وحسن الصحبة، والشفقة على المسلمين، والدعاء لهم، والنصيحة.

[التحلي بمساوىء الصفات]:

فهذه وغيرها مما تحلو به، وبما تخلو عنه من مساوىء الصفات التي هي في سلوك الطريق قاطعات للسالكين، شديدات التعويق؛ وهي: الحقد، والحسد، والرياء، والسمعة، والعجب، والخيلاء، والكبر، والغش، والغِلُّ، وخوف الفقر، وسخط المقدور، وطلب العُلُوّ والرياسة، والمحمدة وحب الجاه في الدنيا، والغضب، والحَمِيَّة، والعداوة، والطمع، والبُخل، والجُبن، والشُّحُّ، والرغبة، والرهبة من قبل المخلوقين، والأشَر، والبَطَر، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، وحب الدنيا، والفخر والمباهاة، والتنافس فيها، والإعراض عن الخَلق استكباراً، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، والصَّلَف، واختبار الأحوال، والتذلل

للمخلوقين، والتملُّق والمداهنة، والمدح والذم، والتزين لهم، وحب المدح بما لم يفعل، والاشتغال بعيوب الناس، ونسيان المنعم، وخلو القلب من الحزن، والانقياد للهوى، والمشاركة له في تدبير أمور الله تعالى، والاقتدار في أمر الله، والاتكال على الطاعة، والمكر، والخيانة والمخادعة، والحرص وطول الأمل، والتبختر، وعزّة النَّفس؛ حيث تحمد الذِّلة، والمغالبة لأمر الله، والأنس بالخَلق، والسكون إليهم، والثقة بهم، والخوف منهم، والطَيش والعَجَلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة، والأمن من مكر الله، والغِيبة والنميمة، والكذب والتصنُّع والنِّفاق، وخشية الإملاق، وغيرها من الأوصاف المُبعدة عن الله تعالى؛ فلجميع ذلك عرفوا علم علاجه فعالجوا به؛ حتى تطهروا ـ بتوفيق الله ـ منه. وعرفوا علم التحلي بالصفات الحميدات المتقدمات.

[جزاء التحلِّي بمحاسن الأخلاق]:

فلما تحلُّوا بالمحاسن وتخلُّوا عن المساوىء، وعملوا بما علموا؛ علّمهم الله ما لم يعلموا من غرائب العلوم. وعجائب الأسرار وجواهر المعارف ويواقيت الحكم، ونوَّر قلوبهم بأنوار مُشاهدات الجمال، وكشف لهم الغِطاء؛ فانكشف لهم من العالم العُلوِيّ والسُّفليّ ما أطلعهم عليه من علم الحال، والماضي، والمآل؛ فأخبروا بما جاز لهم كشفه من علم الغيوب، ونطقوا بما جاز النطق به مِمَّا في ضمائر القلوب، وَعَايَنُوا الآخرة ونعيمها، وعذابها، وثوابها، وعِقابها؛ وَعَرفُوا العلم الأعظم المقصود الأهَم؛ وهو العلم بالله وأسمائه وصفاتِه، عِلْمَ مُشَاهَدة وعيان، لا علم نظر واستدلال. وأطلعهم على ما شاء من الأسرار فَسُمُّوا علماء الحقيقة، وعلماء الباطن؛ لمَّا أعلمهم المولى بحقائق الأمور، وأودَعهم منَ الأسرار ما هو مصون مستور.

الأحوال [السنية]:

ووهبهم من الأحوال السَّنية ما اشتمل على عظيم المِنة، كالمحبة والشوق، والهَيبة، والأُنسِ، والحياء، والقُرب، والاتصال، والغَيبة والحُضور، والسّكر، والذَّوق، والشُّرب، والرِّيّ، والتجلِّي، والمحاضرة، والمكاشفة، والمشاهدة، واللوائح، واللوامع، والطوالع، والبوادة، والهجوم، والتلوين، والتمكين، والقبض، والبسط، والفناء، والبقاء، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلاج المريد بما يشق على النفس بما ذكر في هذا القسم؛ لبلوغه بعد ذلك هذه المسَالِك، والله الموفق لذلك.

[تفصيل مهمات تدعو إليها الضرورة]:

القسم الثالث: فيه تفصيل يتعلق بمهمات تدعو إليها الضرورة.

وهو خمسة: المَلْبس، والمَطْعم، والمَسْكن، وأثاث البيت، والمَنْكح. وهَا أنا مُبيِّن لك ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ بعون الله وفضله، وإن كنتُ لستُ مِنْ أهله، أستغفر الله من أقوال بلا أفعال، ومن أفعال بلا أحوال.

المهم الأول: المَلبَسُ:

والدرجة العليا فيه ما يدفع الحرَّ والبرد، ويستر العورَة مِن كساء أو ثوب يتغطى به.

والدرجة الثانية: قميص وقلنسوة ونِعال.

والدرجة الثالثة: يكون مع ذلك منديل وسَرَاويل.

وما زاد على ذلك قيل يخرج عن حدِّ الزّهد. وأما من حيث الجنس فأعلى الدرجات فيه المسُوح الخشنة.

والدرجة الثانية: الصوف الخشِنُ.

والدرجة الثالثة: القُطنُ الغليظ. وقال السّهروردِي:

لبْس المرقع والخشن يصح لسائر الفقراء؛ بنية التَقلل منَ الدنيا وزهوتها وبهجتها. وقد ورد: «**من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله من حُلل الجنة**»[1]. قال: وقد كان قوم من أهل الصُفَّة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلاً. وروي أنه ـ ﷺ ـ لَبِس الصُوف، واحتذَى المخصُوف. ثم ذكر أنَّ الأَولى للفقير الأزرَق؛ لأنه أوفق وأما لُبْس النَّاعِم فلا يصلح إلا لِعَالِم بحالِه، بصير بصفات نفسه، متفقد خفيَّ شهوات النَّفس، يلقى الله بحسن النيَّة في ذلك. وهذا شأن أهل الجمال من الرِّجال؛ حتى قال سيدي أبو المواهب الشاذلي:

منهم من كان يغسل بغلته بماء الورد وينعلها بالفضة، ومنهم من كان يلبس من الثياب ما يساوي من الدنانير كذا وكذا إلى غير ذلك؛ ولِحُسن النِّية في ذلك وجوه متعددة يَطول شرحها. ومن صحّ حالُهُ بصحة علمه؛ صحت نيته في مأكولِه وملبوسِه وَسائر تصرفاته والله أعلم.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أنس عن أبيه، حديث رقم (٤١٧) [٢٠/١٨٩].

المهم الثاني: المَطْعم:

والدرجة العُلْيا فيه أن يقتصر على ما يدفع عنه الجوع عند تضرره به من أدنى ما وجد، ولا يدخُر، ولا يتقيد بغَداء ولا عَشاء.

والدرجة الثانية: أن يتقيد بالغَداء والعَشاء أو بالعشاء فقط، ولكن لا يَدَّخِر.

والثالثة: أن يَدَّخر قوت يوم، والرابعة: قوت أسبوع، والخامسة قوت شهر، والسادسة: قوت أربعين يوماً، والسابعة: قوت عام؛ وهذه درجة ضعفاء الزُّهَّاد، أو من ابتلي بالعيال والأولاد؛ وليتنا نكون من أهلها. وليس وراء هذه الدرجة في الزهد شيء إلا أن لا يكون له كسب. ولا يرضى لنفسه الأخذ من الأيدي كداود الطائي ـ رضي الله عنه ـ فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة. فهذا لا يقدح في الزهد إلاَّ من جعل التوكل شرطاً فيه.

وأمَّا من حيث قدر الطعام، فأعلى الدرجات فيه الاقتصار على لقيمات يقمن صُلْبه.

والدرجة الثانية: الاقتصار على نصف رطل في يوم وليلة.

والدرجة الثالثة: رطل فيهما، والرابعة: مُدٌّ، وما زَاد على المُدِّ قيل: لا يكون لصاحبه في الزهد في البطن نصيب.

وأما من حيث الجنس فأعلى الدرجات فيه ما يقوت من خبز النخالة ومن نبات الأرض ونحو ذلك.

والدرجة الثانية: خبز الشَّعير والذرة ونحو ذلك.

والدرجة الثالثة: ـ وهي أسفل درجات الزهد ـ الخبز غير منخول فإن نخل فقد قيل إنه يخرج عن حدِّ الزهد ويدخل في حد التنعم.

وأما الإيدام فأعلى الدرجات فيه الملح والبَقل والخَلُّ ونحوه.

والدرجة الثانية: الزيت ويسير من الأدهان.

والثالثة: ـ هي السفلى ـ أن يغلى اللحم في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن زاد عن ذلك فقد قيل: يخرج عن حَدِّ الزهد إلى التنعم والله أعلم.

المهم الثالث: المسكن:

وأعلى الدرجات فيه أن يقنع بزوايا المساجد ونحوه، أو لا يطلب مَسْكناً خاصاً لنفسه.

والدرجة الثانية: أن يطلب مَوضعاً خاصاً من سَقْفٍ أو خوص أو نحو ذلك.

والثالثة: أن يكون من حجارة أو آجُر، ويكون على قدر حاجته من غير زيادة، ولا زينة، ولا ترتفع سقفه أكثر من ستة أذرع وإلاً فقد قيل: يخرج إن زاد على ذلك عن الزهد في المَسْكن؛ لأن الغرض منه دفع الحرّ والبَرْد، والمطر والأعين والأيدي. وقدر الحاجة في ذلك معلوم، وما زاد فهو من فضول الدنيا.

المهم الرابع: أثاث البيت:

وأعلى الدرجات فيه أن تقتصر على ما تدعو إليه الضرورة، وتحصل به الكفاية من إناء مكمور وموضع خَرِب ونحوه.

والدرجة الثانية: أن يكون الأثاث بقدر الحَاجة صحيحاً ويستعمل الآلة الواحدة في أشياء كثيرة كقصعة يأكل فيها ويشرب ويحفظ متاعه.

الدرجة الثالثة: وهي السفلى في ذلك أن يكون له بعدد كل حاجةٍ آلة من الجنس الدون فإن زاد في العدد، أو في فضاحة الجنس، أو كان مُزيناً فقد قيل: يخرج من الزهد إلى الرغبة في فضول الدنيا.

المهم الخامس: في المَنكح:

وهذا ما اختلفوا فيه فقال قائلون: لا معنى للزهد في أصله ولا في كثرته، ونقل بعض العلماء أنَّ سهل بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ممن ذهب إلى ذلك وقال: قد حُبِّبن إلى سيد الزاهدين فكيف نزهد فيهن؟ يعني النِّساء. وكان سفيان بن عيينة يقول: كثرة النساء ليس من الدنيا؛ لأن علياً ـ رضي الله عنه ـ كان أزهدَ أصحاب رسول الله وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية، وروي: وبضع وعشرون سُرِّية. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وكان الجُنيد رضي الله عنه يقول: إني أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو لم يَبْق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عَزَباً.

وقال آخرون بالزهد فيه؛ لما يعرض من الآفات والشغل عن الله سبحانه وتعالى.

قال أبو سليمان الدَّارَاني: كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك شؤم.

وقال أيضاً: ثلاثة من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا؛ من طلب معاشاً أو تزوج امرأة أو كتب الحديث.

وقال أيضاً: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته، ورؤي على حاله.

وقال الدَّقَّاق: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزوج، وكتبه الحديث، والأسفار.

وقال الجُنيد: أحب للمريد أن لا يشغل قلبه بثلاثة، وعَدَّ منهم التزوج. وقال ابن أدهم: من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

وقيل لبشر بن الحارث: الناس يقولون: إنك تارِك السنة ـ يعنون النكاح ـ فقال: أنا مشغول بالفرض عن السُّنة.

وعرض النووي أمر النِّكاح فقال ـ رضي الله عنه ـ: أخاف آتي بسنةٍ فأدخل في محرمات كثيرة. لكن قيل إنه عقد على امرأة وأبانها قبل الدخول بها للسُّنة. والآثار في ذلك كثيرة متعددة عن السلف والصحابة، بل تعارضها الأخبار عن رسول الله ﷺ في الترغيب في النكاح والترهيب عنه بقوله:

«يا معاشر الشباب مَنِ استطاع مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فليتزوج...»[1] الحديث. وقوله ﷺ: **«تناكحوا تكاثروا...»**[2] الحديث. وقوله ﷺ: **«لكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النِّساء»**[3].

وقوله ﷺ: **«ما تركت بَعْدِي فتنة أضرَّ على الرجال من النِّساءِ»**[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ من استطاع..، حديث رقم (٤٧٧٨) [٥/ ١٩٥٠] ومسلم في صحيحه، باب استحباب النكاح..، حديث رقم (١٤٠٠) [٢/ ١٠١٨] ورواه غيرهما.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب وجوب النكاح وفضله، حديث رقم (١٠٣٩١) [٦/ ١٧٣] وباب شهادة امرأة على الرضاع، حديث رقم (١٣٩٧٠).[٧/ ٤٨٢].

(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب الترغيب في النكاح..، حديث رقم (٤٧٧٦) [٥/ ١٩٤٩] ومسلم في صحيحه، باب استحباب النكاح..، حديث رقم (١٤٠١) [٢/ ١٠٢٠] ورواه غيرهما.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يتقى من شؤم المرأة..، حديث رقم (٤٨٠٥) [٥/ ١٩٥٩] ومسلم في صحيحه، باب أكثر أهل الجنة الفقراء..، حديث رقم (٢٧٤٠) [٤/ ٢٠٩٧] وحديث رقم (٢٧٤١) [٤/ ٢٠٩٨] ورواه غيرهما.

وقوله ﷺ: **«خيرُكم بعد المأتين رجل خفيف الحاذ»** قيل: يا رسُول الله، وما خفيف الحاذ؟ قال: **«الذي لا أهل له ولا ولد»**[١] وغير ذلك من الأحاديث.

والصواب ـ والله أعلم ـ أنه مختلف باختلاف أحوال الناس، وقد فصَّل عُلماء الظاهر والباطن فيه تفصيلاً فقالوا: إن احتاج إليه ووجد أُهبته استحب له وإلا كُرِه له. وإن وجد الحاجة دون الأُهْبة كسر نفسه بالصوم، فإن لم تنكسر استعان بالله وتزوج. وإن وجد الأُهبة ولم يجد الحاجة فإن كان مشغولاً بعلم أو عبادة كُرِه له التزوج، وإن لم يكن مشغولاً بواحدٍ منهما استُحبت له ليكون آتياً بالسُّنة.

وأمَّا عُلماء الباطن فقالوا: التجرد عن الزوجات والأولاد أعون على الوقت للفقير، وأجمع لهمته، وآلةٌ لعيشته؛ وهذا أصلح له في ابتداء أمره؛ لأنها تمنعه عن كثرة الاشتغال بالله، وقيام الليل، وصيام النَّهار، ويتسلط على الباطن خوف الفقر، ومحبة الإدخار، ويدخل في المداخل المذمومة المؤدِّية إلى الذلِّ لأهل الدنيا، وأخذ الشيء من غير وَجْهه، واشتغال الذِّمة بالحقوق، وتفرق الهمم وغير ذلك، فلا يصلح له الخروج؛ حتى تنصلح النَّفس، وتستحق إدخال الرفق عليها، وتصير نفسه مطمئنة زكيّة، متصفة بالصِّفات المحمودة بعد الصفات المذمومة؛ كما رُوي عن سيدي عبد القادر الكيلاني أنه قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ: تزوَّج.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: كنت أُريد الزوجة مُدَّة من الزَّمان، ولا أتجرأ على الزواج خوفاً من تكدير الوقت. فلمَّا صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله لي أربع زوجات، ما فيهن إلاَّ من ينفق عليَّ إرادة ورغبة.

قالوا: ومَنْ صبر من الصوفيةِ على العزوبية إلى بلوغ الكتاب أَجَلَهُ تُنتخب له الزوجة انتخاباً، ويهيِّيء الله له أعواناً وأسباباً، وينعم برفيق يدخل عليه، وبِرزْق يُسَاقُ إليه؛ فقد بان لك من هذا أنَّ من لم تشغله الزوجة ولا غيرها عن الله، فله التزوج من غير كراهةٍ، بل هو سُنَّة في حقِّه، ولكن الزهد فيه كما قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أن يختار المرأة الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميلة فالضرورة مُسامحة بها، ولكن إذا تزوجها ينبغي أن يراعي أوقاته وقلبَهُ، ويحترز من استيلاء الغفلة عليه بسبب المَيْل.

(١) رواه الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، أسامي شتى ممن ابتداء أساميهم راء [٣/ ١٧٦].

قال السهروردي رضي الله عنه: ودواء هذه الفتنة أن يكون للتأمل عند المجالسة عينان باطنيتان ينظر بهما إلى مولاه، وعينان ظاهرتان يستعملهما في طريق هواه، وإلى معنى ذلك أشارت رابِعة العَدَوِيَّة رضي الله عنها حيث قالت:

إنِّي جعلتُك في الفؤاد محدِّثي وأبحتُ جِسميَ من أراد جلوسي
فالجسمُ منّي للجليس مُؤَانِسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

قال اليافعي في نشر المحاسن: إنّ من المسامحة في ذلك ما سمعت من بعض مشايخي رضي الله عنهم يقول: ما نمت جُنُباً ولا توسدت وسادة حتى تزوجت.

وليحذر أن يطيعها في كل مَا تهوى من أمور الدنيا؛ فقد كان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: والله ما أصبح اليوم من رجل مُطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبَّهُ اللّهُ على وجهه في النار.

ولا يحملها أيضاً على الزهد كما قال أبو سليمان الدارَاني: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله على الزهد، بل يدعوهم إليه فإن أجابوا، وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء. وقد ذكر السهروردي أيضاً أنَّ كل ما جاء من التعارض في النكاح، إنما هو في حق من نارُ توقانه بَرْدٌ وسَلامٌ؛ لكمال تقواه وقهره لهواه.

فأمَّا إذا خاف الفتنة يجب النِّكاح في حال التوقان المُفرِط. قال: والصوفيُّ ـ إذا كان متأهِّلاً ـ يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار، ومسامحته في الاستكثار إذا كان ضعيف الحال، قاصراً عن رُتبة الرِّجال.

قال: وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النِّكاح تختص بهم؛ وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والرياضات تطمئن نُفُوسُهُمْ، وتقبل قلوبهم؛ لأنَّ النَّفس لا تزال تخالف هَواهَا حتى يصير داؤها دواءَها، وتصير الشهوات المباحة، والللذات المشرُوعةِ لا تضرها ولا تُغيّر عليها عذابها. بل كُلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها؛ ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً، ويصير بين القلب والنَّفس موافقة بعطف أحدهما على الآخر، ويزداد كل واحدٍ منهما بما يدخل على الآخر من الحظ، كلما أخذ القلب حظه من الله؛ خلع على النَّفس المطمئنة مزيداً لسكينة القلب مزيداً لطمأنينة النفس:

إنَّ السماء إذا اكتست كست الثرى حُللاً يُدبِّجُها الغمام الرَّاهم

وكُلَّما أخذت النَّفس حظها تروَّح القلب تروُّح الجار المشفق براحَة الجار والله أعلم.

وقد تمّ الكلام على القسم الأول وهو تجريد الظاهر وهو التجريد المجازي على وجه الاختصار.

[التجريد الحقيقي لأهل الكمال]:

والقسم الثاني: ـ وهو التجريد الحقيقي ـ هو تجريد القلب من كل ما سِوَى الله تعالى. وهذا هو الركن الأعظم والأمر الأهم والعبرة به والتوكل عليه. وهو إنما يصح لأهل الكمال الذين لم يشغلهم سواه طرفة عين؛ إذ هو محل الإيمان والعقل، ومورد التكليف، ومحل المجاهدة، وكنز الأسرار، وسراج الأنوار، ومورد المعارف الربانية، والإشراقات النورانية، والنفحات الهنية ـ وهو العقل.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عَقل. وإليه ينظر الحق كما قال. جاء في الحديث: **«إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم»**[(١)]. **«ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[(٢)]. وقيل: **«أوحى الله إلى داود ـ عليه السلام ـ طهّر لي بيتاً أسكنه»**[(٣)]. **«لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن»**[(٤)].

والأخبار والآثار في ذلك كثيرة، وهذا القسم محض هبة لأهل الجَذْب، والله أعلم.

وأمّا أهل السلوك فإنما ينالون ذلك ـ غالِباً ـ بالمجاهدة في نفي الخواطر المذمومة من القلب ـ المتقدم ذكرها ـ، ويستعينون على نفيها بالذكر، وهو أنواع كثيرة، وأنفعُه للمريد في بدايته لا إله إلا الله؛ لأنّ نيران الذكر في فضاء صدر الذاكر لا تُبقي ولا تذر، فإذا دخل بيتاً يقول: أنا ولا غيري.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم. .، حديث رقم (٢٥٦٤) [١٩٨٦/٤] ونصه: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صدره. ورواه غير مسلم بألفاظ أخرى متقاربة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢) [٢٨/١] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال. .، حديث رقم (١٥٩٩) [١٢١٩/٣] ورواه غيرهما.

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٢٥٦) [٢٥٥/٢] والهروي في المصنوع [١/ ٢٩١].

وهو من معنى لا إله إلا الله. فإذا كان في البيوت حطب أحرقه فكان ناراً.

وإذا كان في البيت ظلمة أفناها. ونوَّر البيت فكانت نوراً. وإذا كان في البيت نور لم يكن ضداً له، بل ذلك النور ذكر وذاكر ومذكور فيصطحبون جميعاً، نور على نور. والذكر حق، وصفته حق، يفني الحظوظ وينتفي الحقوق منها مضادة بينهما والحظوظ أجزاء زائدة حصلت من الإسراف؛ فيقع فيها نار الذكر فيفنيها. فاشتغل به ولو كان بمجرد لقلقة اللسان لأنَّ له سلطاناً عظيماً.

وغفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره؛ فعسى أن ينقلك من ذكر مع غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حُضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور[1]، وقد صحَّ عن المشايخ أن الذكر طريق الحق؛ إذ الشيطان والنفس على يقين من أنه إذا داوم على الذكر تقوى روحانيته، ولا يبقى لهما حُكم عليه، ويكونان في حكم الروح.

فالطالب الصَّادق ينبغي أن يكون ثابت القدم، ويُشمِّر عن ساق الجد والاجتهاد، ويأخذ من نفسه ما اجتمع لها من القُوى والشهوة. فإذا كان صادقاً أدركته العناية، وأخذت بعضديه، وأخرجته عن مضيق الوحشة والتردد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧] فإذا داوم على هذا الوجه، انقطعت عنه اللذات والحظوظ التي تمكنت من قلبه وأعضائه وجوارحه أيام الغفلة؛ فيكون هذا بداية نفوذ الذكر إلى الروح، فيذكر الروح ويجلس على بساط الملك وسرير القلب بالخلافة، ويحكم على الحواس الظاهرة والباطنة، وتنعزل النفس عن المنصب الذي غصبته بالمكر والخيال من الروح، ويرجع إلى منصبه وملكه، وتكون النَّفْس من رعايا الروح.

ثم يصل أثر الذكر إلى السِّرِّ فيجتهد أن لا يخلو نَفَسٌ من أنفاسه من ذكر الله تعالى، وسلّم نفسه إليه؛ حتى يفنيه فيه؛ فيغيب عن جميع الأشياء وحتى عن نفسه وعن الذكر أيضاً.

---

(١) هذه حكمة من حكم الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩هـ ونصها: لا تَتْرُكِ الذِّكرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيه، لأنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ، إلى ذِكْرٍ مَع وُجودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ، إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سوى الْمَذْكورِ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ٢٠].

تقسيم النَّفس:

والنفوس ثلاثة: أمَّارَة: وهي نفس العامَّة، تكون مظلمة فإذا وقع فيها الذكر كان كالنور المتقد في البيت المظلم، فحينئذ تصير لوّامة؛ لأنها ـ عند ذلك ـ تبصر ما في البيت من الصفات المذمومة؛ فتجتهد في إخراجها منه بعدما كانت تلطخت بأنواع من المذمومات؛ فتلازم ذكر الحق والإنابة حتى يظهر سلطان الذكر عليها فيخرجها، ثم تقرب من الطمأنينة، فلا يزال يجتهد في أثاث البيت حتى يزينه بأنواع الصفات المحمودات، فيتحلى بها ويصلح البيت لنزول السلطان. فإذا نزل فيه السلطان وتجلّى اطمأنت.

وقد ورد في بعض الأخبار عن الله عزّ وجلّ: «**يا داود طهّر لي بيتاً أسكنه**». «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**»[(١)] وتأويل هذا ـ والله أعلم ـ ما قيل إن الباري ـ جلّ ذكره ـ جعل القلوب الملتاعة بالبصائر المعنوية سجلاً للعلوم اللدنية، وهو مورده للأسرار الإلهيَّة، ومورده للأنوار القُدسيَّة ومصاغ للتجليات الجلالية والجمالية. ثم حَسم مادة الأوصاف الجوهرية؛ عن القلوب الصنوبرية، وعن الأفهام الوهمية، والخيالات الفكرية الموصوفة بالبشرية؛ لأنها لا بقاء لها مع ظهور الربوبية.

فهذا التأويل هو وصف الوسعية لا المكانية والزمانية؛ لأن الحق ـ جَلّ وعَلا ـ منزَّه عن الحلولِ في المحلية، مقدَّس عن المِثْلية والظرفية.

واعلم أنك ما دمت ملوعاً بالنَّظر إلى ما سوى الحق، فلا بد لك من نَفْي لا إله، وما دمت تعتمد على الرياسة والجاه فلا بد لك من نفي لا إله، وما دمت ترى في الوجود سواه فلا بد لك من نفي لا إله، وما دمت في عالم وجودك فلا بد لك من نفي لا إله، وما دمت في ظلمة شركك الخفي فلا بد لك من نفي لا إله، وما دمت ملاحظاً ما سواه فلا بد لك من نفي لا إله. فإذا رغبت عن الكلِّ بمشاهدة صاحب الكلِّ استرحت من نفي لا إله، واتصلت بإثبات إلا الله؛ فتستريح مما سِوى الله؛ فحينئذ تطلع شمس الوحدانية على بُرج الفردانية في كلمة إلا الله؛ فتطفىء ليل وجودك، وتذهب ظلمته. فلا إله ظلمة ومسكنة منك تحل الظلمة، وإلا الله نُورٌ ومسكنة منك تحل النور. فإذا اتصلت حدود لا إله بإثبات إلا الله انعكست أنوار

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الإثبات على ظلمة النفي، وصار الكل نوراً وإثباتاً محصناً، وذهبت ظلمة النفي بنور الإثبات؛ فاستنار به عَالم وُجُودِك، وصارت الخِلال الذميمة حميدة، وبقي الهوى وكدورة النفس فؤاداً والبشرية روحاً، والطبع سِراً، والشيطان مَلكاً، وإليه الأشارة بقوله ﷺ: **«أسلم شيطاني»**[١].

مراتب التوحيد:

وَاعْلَمْ أن كاشف القلوب لا إله إلا الله، وكاشف الأرواح الله الله، وكاشف الأسرار هو هو. معنى ذلك يكشف للقلوب عَمَّا انطوى فيها من العلوم اللدنية، والحقائق المعنوية، وللأرواح عما جانسها من العوالم الملكوتية والجواهر الخفية، وللأسرار عما شاكلها من الواردات الإلهيَّة والتجليات القدُسية. فلا إله إلا الله قوت القلوب، والله قوت الأرواح، وهو قوت الأسرار، وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: **«يا موسى اجعلني طعامك وشرابك»**.

فقد بان لك بهذه الجملة معنى التجريد القلبي.

[أنواع الخواطر وكيفية نفيها]:

وأنَّ المراد به نفي الخواطر، وهي خمسة: لأنَّ الخاطر خطاب يرد على الضمائر فقد يكون بلقاء الحق، وتارة بلقاء المَلك، وتارة بلقاء القلب، وتارة بلقاء النفس، وتارة بلقاء الشيطان. فالذي من قِبل الله خاطر حق، وعلامتُه أنه إذا خطر لا يعترض عليه مَلك ولا قلب ولا نفس ولا شيطان، وله على القلب حكم كفريسة السبع.

وإذا كان من قبل المَلَك فإنما يُعلم صدقه بموافقة العلم؛ ومن هنا قيل: كل خاطرٍ لا يشهد له ظاهر فهو باطل، وعلامته أنه يجب لمحمودك أبداً مع كراهية النَّفس، إلا إذا زكت.

وإذا كان من قِبل القلب فهو قريب من خاطر المَلَك، إلا أنَّ بينهما فرقاً وهو أنَّ القلب تفارقه في الشهوة، والشوق، والحنين، والطَيْش، والطَّيران، والإنصاف،

(١) هذا الأثر لم أجده إنما ورد بألفاظ أخرى منها ما رواه مسلم في صحيحه: **«عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينته من الجن»** قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: **«وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»**.

والمحبة، والرغبة، والعِشْق والوَلَه، والجنون في الحق؛ وهذا سبب ترجيح المؤمنين على الملائكة، وأمَّا الملائكة فما لهم شهوة. وإذا كان مِن قِبل النَّفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوةٍ، واستشعارِ كِبْرٍ، أو ما هو من خصائص أوصاف النفس؛ وعلامته أنك تحس في القلب ألماً، وفي الصدر ضِيقاً، وفي الأعضاء وَجَعاً، وفي النَّفس خِيفة، وربما يذهب ويعود حتى تبلغ مرادها.

وإذا كان من قِبَل الشيطان فهو خبيث، وأكثره يدعو إلى الضلالة، ويضل كل أحدٍ على قدر ما يطيق به. وعلامته إذا خطر يستفز ويستعجل، ولا يجد القلب منه راحة، وكأنك استقبلت الظلمات، ويمازجك الرياء والالتفات إلى غير الحق، وتندق أعضاؤك عند نزوله عليك، وخاطره أصعب من خاطر النفس؛ لكثرة فنونه في المكر والحيل. يأتي الإنسان من كل طريق إلا من باب الإخلاص، وإذا دعا إلى زَلة يترك ذلك الوسواس ويوسوس بزلة أخرى لأنَّ جميع المخالفات عنده سواء، وإنما إذا دان يكون دائماً داعياً إلى زَلةٍ ما ولا غرض له في زَلة دون أخرى، فكن يا أخي مخلصاً.

وقد سَمَّوْا ما كان من قِبل الحق خطاباً، ومن قِبل المَلك إلْهاماً، ومن قِبل القلب هاتفاً، ومن قِبل النَّفسِ هاجساً، ومن قِبل الشيطان وسواساً.

فإن قلت: ما الفرق بين الخاطر والوارد؟ قلت: اعلم أن الوارد هو ما يرد على القلْب. فقد يكون وارد فيض من الحق، وواردأ من العلم، ووارد سرور، ووارد حزن، ووارد قَبْض، ووارد بَسْطٍ، إلى غير ذلك من المعاني. فهذه أعم من الخواطر، لأنَّ الخاطر يختص بنوع الخطاب أو ما تضمن معناه والله أعلم.

الترغيب في الذكر:

تنبيه: في ذكر بعض آيات وآثار وأخبار وردت في الذكر:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١] الآية. وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١]. والآيات في ذلك كثيرات.

وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكِكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم؛ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**ذِكر الله**».(١)

وقال ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**»(٢). وقال ﷺ: «**إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها**» قيل له: وما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة**» قلنا: يا رسول الله ما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**»(٤).

قال: «**اغدُوا ورُوحُوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده؛ فإنَّ الله يُنزل العبد من حيث أنزله من نفسه**».

ورُوي أنَّ من قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ كشف له غيب ما قصد، وتحرك لقوله عرش الرحمٰن؛ وذلك أنه قصد الكلمة الطيبة بذاتها لأنَّ لها نسبة في الملك، وخروجاً في الجبروت، وصعوداً في الملكوت. فلا ينغلق عنها باب، ولا يقف دونَها شيء من حقائق العوالم، وحقائق العوالم صادرة عنها.

قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وكذلك رُوي أنَّ من قالها ألف مرة، على طَهارة، في كل صبيحة يوم؛ يسَّر الله عليه أسباب الرزق. وكذلك من قالها ـ عند النوم ـ العدد المذكور؛ باتت روحه تحت العرش تتغذى من ذلك العالم بحسب قواها. وكذلك من قالها ـ عند وقوف الشمس ـ ضعف منه شيطان الباطن. وكذلك من قالها ـ عند رؤية الهلال ـ أمن من أسقَام الأجسام. وكذلك من قالها ـ عند مدينة ـ آمن من فتنتها، وكذلك من قالها بجمع فِكْره، وأرسلها لظالم أو جبار قطعته، وكذلك من يقصد التطلع للعلويات.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (١٨٢٥) [١/ ٦٧٣] وابن ماجة في سننه، باب فضل الذكر، حديث رقم (٣٧٩٠) [٢/ ١٢٤٥] ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، حديث رقم (١٤٨) [١/ ١٣١] رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (٨٥١١) [٤/ ٥٣٩] ورواه غيرهما.

(٣) رواه الترمذي، حديث رقم (٣٥١٠) [٥/ ٥٣٢] ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (١١١٥٨) [١١/ ٩٥] ورواه غيرهما.

(٤) أورده الدينوري في تأويل مختلف الحديث، [١/ ١٢١] والجزري في النهاية في غريب الأثر، [١/ ١٨٧].

وقال ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**»[(١)] الحديث.

وقال ﷺ: «**ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**»[(٢)].

وعن معاوية أن النبي ﷺ خرج على حلقة من أصحابه قال: «**ما يجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده. فقال: «**إنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة**»[(٣)].

وأخرج الحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي ـ في شعب الإيمان ـ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مُراؤون**»[(٥)] وهذا الحديث أخرجه البيهقي في الشعب عن أبي الجوزاء وهو مرسل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الذات والنعوت. . ، حديث رقم (٦٩٦٧) [٦/ ٢٦٩٤] والطبراني في الدعاء، حديث رقم (١٨٧٠) [١/ ٥٢٣] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي، باب ما جاء في القوم. . ، حديث رقم (٣٣٧٨) [٥/ ٤٥٩] الطبراني للدعاء، الجزء التاسع، حديث رقم (١٩٠٠) [١/ ٥٣٢] ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن. . ، حديث رقم (٢٧٠١) [٤/ ٢٠٧٥] وابن حبان في صحيحه، ذكر مباهاة الله جلّ وعلا ملائكته. . ، حديث رقم (٨١٣) [٣/ ٩٥] ورواه غيرهما. ونص رواية مسلم هو:
عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكن وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عزّ وجل يباهي بكم الملائكة**».

(٤) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (١٨٣٩) [١/ ٦٧٧] وابن حبان في صحيحه، ذكر استحباب الاستهتار للمرء بذكر ربه جلّ وعلا، حديث رقم (٨١٧) [٣/ ٩٩] ورواه غيرهما.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في إدامة ذكر الله. . ، حديث رقم (٥٢٧) [١/ ٣٩٧] والهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في مجالس الذكر [١٠/ ٧٦] وأورده غيرهما.

وقال ﷺ: «**ما من قوم يجتمعون يذكرون الله إلا ناداهم منادٍ من السماء قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات**»(١).

وقال ﷺ: «**يقول الربُّ يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع مَنْ أهل الكرم**» فقيل: ومَن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: «**مجالس الذكر في المساجد**»(٢).

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود: «**إنَّ الجبل لينادي الجبل باسمه، يا فلان هل مَرَّ بك اليوم ذاكر؟ فإن قال: نعم؛ استبشر**». ثم قرأ عبد الله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠]. الآية، وقال: يسمعون الزور ولا يسمعون الخير.

وعن ابن عباس في تفسير ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] قال: إنَّ المؤمن إذا مات بكى عليه مِنَ الأرض الموضع الذي كان يصلي فيه، ويذكر الله فيه.

وعند شداد بن أوسٍ قال: إنا لعند النبي ﷺ إذ قال: «**ارفعُوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله**» ففعلنا. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد**» ثم قال: «**أبشروا فإن الله قد غفر لكم**»(٣).

وأخرج الطبراني في الكبير، وابن جرير عن عبد الرحمٰن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية؛ فخرج يلتمسهم؛ فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائرة الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد. فلمَّا رآهم جلس معهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم**». وعن ثابت قال: كان سلمان في جماعةٍ يذكرون الله، فمرَّ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ فكفوا، فقال: «**إني رأيت**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، في ثواب ذكر الله عز وجل، حديث رقم (٢٩٤٧٧) [٦/ ٦٠] والطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، عن أنس، حديث رقم (١٥٥٦) [٢/ ١٥٤] ورواه غيرهما.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، من مسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم (١٠٤٦) [٢/ ٣١٣] وأحمد في المسند، من مسند أبي سعيد الخدري حديث رقم (١١٦٧٠) [٣/ ٦٨] ورواه غيرهما.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (١٨٤٤) [١/ ٦٧٩] والبزار في مسنده، حديث عبادة بن الصامت رقم (٢٧١٧) [٧/ ١٥٧] ورواه غيرهما.

الرحمة تنزِلُ علَيكُم، وأحببت أن أشارِككم فيها» ثم قال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي مَنْ أُمِرْتُ أنْ أصبرَ نفسي معهُم**».

وقد استحب الصوفية ـ رحمهم الله تعالى ـ الجهر بالذكر؛ مستأنسين بهذه الأحاديث من غير كراهَةٍ البتة.

وأمَّا المعارضة بحديث «**خير الذكر الخفي**»(١) فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث «**المُسِرُّ بالقُرآن كالمُسِرّ بالصَدَقة**»(٢). وقد جمع النووي ـ رحمه الله ـ بينهما بأنَّ الإخفاء أفضل؛ حيث خاف الرِّياء أو تأذَّى بواحد مُعَلٍّ أو نائم، والجهر أفضل في غير ذلك؛ لأنَّ العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يُوقظ قلبه وجمع هَمَّهِ إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط.

وعندي ببركة الذكر ينقلب الرياء إخلاصاً ـ والله أعلم ـ. وقال أبو علي الدقَّاق ـ رضي الله عنه ـ: الذِّكْرُ منشور الولاية، فمَنْ وُفِّق للذكر فقد أُعْطِي المنشور، ومَنْ سُلِب الذكر فقد عُزِلَ. وقال ابن عبد الرحمٰن: سمعت ذا النون يقول: مَنْ ذَكَر الله على الحقيقة فَنِيَ في جَنْب ذِكْرِه كل شيء، وحَفظ الله عليه كل شيء، وكان عوضاً من كل شيء. وقيل: سُئل عثمان فقيل له: نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة!! فقال: احمدُوا الله على أن زيَّن جارحَةً من جوارحكم بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: مَا مِنْ يوم إلاَّ والجليل ينادي: عبدي ما أنصفتني؛ أذكرك وتنساني، وأدعوك إليَّ وتذهب إلى غيري، وأُذْهِب عنك البلايا، وأنت معتكف على الخطايا.

يا ابن آدم، ما تقول غداً إذا جئتني. وقال أبو سليمان الداراني: إنَّ في الجنة قِيعَاناً، فإذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار فربما يقف بعض الملائكة فيقال له: لَمَ وقفت؟ فيقول: فتر صاحبي.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن ذكر العبد ربه. . ، حديث رقم (٨٠٩) [٣/ ٩١] وابن أبي شيبة في مصنفه، في رفع الصوت بالدعاء، حديث رقم (٢٩٦٦٣) [٦/ ٨٥] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الحاكم، أخبار في فضائل القرآن. . ، حديث رقم (٢٠٣٨) [١/ ٧٤١] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قراءة المرء القرآن بينه وبين نفسه. . ، حديث رقم (٧٣٤) [٣/ ٨]. ورواه غيرهما.

وقال الحسن: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلاّ فاعلموا أنّ الباب مُغلق.

وقال الجنيد: سمعت السري يقول: مكتوب في بعض الكتب التي أنزل الله، إذا كان الغالب على عبدي ذكري عَشِقَني وعَشِقْته.

وقال النووي: لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وفي الإنجيل: اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب. وارضَ بنصرتي لك؛ فإن نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

وقيل لبعضهم: أنت صائم؟ فقال: صائم بذكرِه فإذا ذكرت غيرَه أفطرت. وقيل: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن قرب منه الشيطان صُرِع.

تنبيه: اعلم أنّ الذكر رُكن قوي في طريق الجنيد وصحبه؛ ولهذا قال بعضهم: الذكر أتَمُّ من الفِكْر. أي لأنه أنفع في علاج المريدين.

قال النووي ـ في الأذكار ـ: لا إله إلا الله رَأسُ الذكر، ولذلك اختار السَّادَةُ الأجِلّة من صفوة هذه الأمّة، أهل تربية السالكين وتأديب المريدين، لأهل الخلوة لا إله إلا الله، وأمروهم بالمداومة عليها. وقالوا: إنها أنفع عِلاج في دفع الوسوسة، والإقبال على ذكر الله والإكثار منه. انتهى كلامه رحمه الله ونفعنا بعلومه.

وأمّا طريقة السَّادة الشاذلية ـ وهي طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي وصحبه ـ فالفكر عندهم أقوى الأركان؛ لأنه يُثمر العِلم والبيان وكلاهما طريق مقوم، خال من الشبه والأهواء، دائر مع التفويض والتسليم.

وللفقير بالطريقين وصلة من طريق التلقين والصحبة. فأمّا التلقين من طريق الجنيد، فقد تلقنت على جدِّي أبي الحسن علي بن خليل المرصفي وهو تلقن على سيدي مدين ابن أخته سيدي محمد من بعد وفاة سيدي مدين ـ المذكور ـ كما أخبر بذلك ونبّه عليه في كتابه المنهج السالك. فقال: روى الشيخ يوسف الكورَاني الشهير بالعجمي في رسالته: إنَّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله، وأسهلها على عباده، وأفضلها عند الله تعالى؟ فقال ﷺ: «**يا علي عليك بدوام ذِكر الله تعالى في الخلوات**». فقال علي: هكذا فضيلة الذكر وكل الناسِ ذاكرون. فقال ﷺ: «**يا علي لا تقوم السَّاعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله**». فقال علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**غمّض عينيك، واسمع منّي ثلاث مرات، ثم قل أنت ـ ثلاث مرات ـ وأنا أسمع**».

فقال ﷺ: **«لا إله إلا الله ـ ثلاث مرات ـ مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعلي يسمع»** ثم قال علي رضي الله عنه: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه، رافعاً صوته، والنبي ﷺ يسمع. ثم لقَّن علي رضي الله عنه الحسن البصري، وهو لقَّن داود الطائي، وهو لقَّن معروفاً الكرخي، وهو لقَّن السَّرِيّ السَّقَطي، وهو لقَّن أبا القاسم الجنيد، وهو لقَّن ممشاد الدينوري والقاضي رويم البغدادي.

فأمَّا القاضي رُوَيم فلقَّن أبا عبد الله محمد بن خفيف الشِّيرازي، وهو لقَّن أبا العباس النهاوندي، وهو لقَّن أخا فرج الزيجاني، وهو لقَّن القاضي وحيد الدين، وهو لقَّن ابن أخيه أبا النجيب السهروردي، وهو لقَّن الشيخ نجيب الدين علي بن بزغوش الشِّيرازي، وهو لقَّن الشيخ عبد الصمد النطتري، وهو لقَّن الشيخ بدر الدين محمود الطوسي ونجم الدين الأصفهاني، وهما لقَّنا الفقيه حسن الشمشيري، وهو والشيخ نجم الدين لقَّنا الشيخ يوسف العجمي، وهو لقَّن وَتَوَّب الفقير إلى الله تعالى حسن التستري وعلياً صاحبَ الدِّيك.

فأمَّا التستري فلقَّن أبا العباس أحمد الزَّاهد، ولقَّن صاحب الديك.

وأمَّا الزاهد فلقَّن أبا شعيب مَدْين وهو لَقَّن الشيخ شمس الدين محمد ـ ولد أخته ـ وهما لقَّنا وتوَّبا عارف الزمان وأستاذ العصر والأوان علياً بن خليل المرصفي، وألبسه الخرقة سيدي محمد ـ ابن أخت سيدي مدين المذكور ـ وأوصاه بتقوى الله تعالى وطاعته، والاستقامة بأوامر الله تعالى ونواهيه، وبمتابعة نبيه ـ ﷺ ـ والدعاء للإخوان والمسلمين في نطاق الإجابة؛ فإن من استقام بنفسه يستقيم به غيره، وأن يُلبِس الخِرقة، ويلقن الذِكر ويتوِّب من طلب منه ذلك، على سبيل التشبه بالقوم ومزيد محبتهم، من غير شرط تعليم الشرائط.

وأمَّا من طلب منه ذلك على سبيل الإرادة والسلوك، فبعد أن يعرض آداب كلٍ منهما وشرائطه المعتبرة عند القوم.

آداب الذكر:

وآداب الذكر، وهي عشرون: منها خَمْسَة قَبْله، واثنا عشر معه وثلاثة بعده. فالخمسة التي قبله: التوبة وحقيقتها: ترك العبد ما لا يعنيه قولاً وفِعلاً وإرادَة بعد الندم، ودوام الطهارة من الحدثين، والسكون والسكوت ليحصل الصدق بأن ينشغل قلبه بـ الله الله بالفكر دونَ اللسَان؛ حتى لا يبقى خاطر مع الله الله، ثم يوافق اللسان القلب بلا إله إلا الله.

الرابع: استمداده بقلبه عند شروعِه في الذكر بهِمَّة شيخه، ولو نادى شيخه بلسانه في الاستغاثة عند الاحتياج جاز. وإذا ابتدأ بالذكر يحضر صورة شيخه في قلبه، ويستمد منه؛ إذ قلب شيخه يحاذي قلب شيخه إلى الحضرة النبوية، وقلب النبي ﷺ دائم التوجه إلى الحضرة الإلهية؛ فتفيض ـ عند التصور المذكور ـ الأمداد من الحضرة الإلهية على قلب النبي ﷺ، ومن قلبه على قلب المشايخ على الترتيب ثم من قلب شيخه إلى قلبه فيقوى على استعمال الآلة؛ إذ هو في بدايته كالطفل، ليس له قوة استعمال الآلة على الوجه الذي يؤثر ويقع محصلاً للغرض وإن كان بيده سيف الله وهو الفكر.

قال ﷺ: «**الذكر سيف الله**»[(١)]. ولكن أين للسيف ضارِب إلا بقُوة مستفادة من حضرة نبي السيف!! فإذا استمد من شيخه جاءه المدد؛ لقوله ﷺ ولقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والخامس: أن ينوي استمداده من شيخه هو استمداده من النبي ﷺ لأنه نائبه.

وأمَّا الإثنا عشر: فالجلوس على مكان طاهر متربعاً أو كجلوس الصّلاة مستقبل القبلة، وإن كان مع جماعة فيتحلقون.

وفرّق بعض المتأخرين في الجلوس بين المبتدي والمنتهي، فالمبتدي يجلس كجلوسه في الصلاة، والمنتهي يتربع، وأن يضع راحتيه على فخذيه، وأن يُطَيِّب مجلس الذكر بالطيب من الروائح، وأن يلبس الطيب حِلاً ورائحة.

وأن يكون البيت مُظلِماً إن أمكن، وأن يغمض عينيه، وأن يتمثل خيال شيخه بين عينيه، وهذا عندهم أكبر الآداب.

والصِّدْقُ ـ وهو استواء السِّر والعَلانية ـ كالسيف، ما وُضِع على شيء إلا قطعه، والإخلاص وهو تصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصل الذاكر إلى درجة الصديقيَّة؛ وهو أن يُظهر جميع ما يخطرُ بقلبه لشيخه، وإن لم يظهر كان خائناً؛ ولهذا قالوا: ليس من شرط الشيخ أن يطلع على باطن المريد، ولكن من شرط المريد أن يذكر جميع ما يخطُر بقلبه لشيخه.

والعاشر: لا إله إلا الله، مع التعظيم بقُوَّة ظاهرة تامة جَهراً، وتصعيد لا إله من فوق السُّرَّة من النفس التي بين الجنبين، وإيصال إلا الله بالقلب اللحمي، مع حُضور

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

القلب المعنوي فيه. قال سهل: إذا قلت لا إله إلا الله، مُدّ الكلمة وانظر إلى قِدَم الحق، وأثبته، وأبطل ما سِواه. قال النووي: المراد من الذِكر حضور القلب فيه، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبَّر ما يُذكر فيتعقل معناه، وهذا هو الحادي عشر. فالتزين في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة؛ لاشتراكهما في المعنى المقصود؛ ولهذا كان المذهب الصحيح المختار استحباب مَدّ الذاكِر قول لا إله إلا الله؛ لما فيه من التدبر.

والثاني عشر: نفي كل موجود في القلب سوى الله بلا إله؛ ليتمكن تأثير إلا الله بالقلب، ويَسْري إلى الأعضاء.

وأمَّا الثلاثة فالسكون بعد السكوت من الذكر، مع الخشوع وحضوره مع قلبه، مترقباً لوارد الذكر؛ فلعله يرد عليه فيعمر وجوده في لحظة ما لا تعمِّره الرياضة والمجاهدة في ثلاثين سنة.

الثاني: أن يذم نفسه مِرَاراً؛ لأنه أسرع لتنوير البصيرة، وكشف الحجب، وقطع خواطر النفس والشيطان؛ لأنه إذا ذمّ نفسه، وعطَّل حَوَاسَّه، صار يشبه الميت، والشيطان لا يقصد الميت.

الثالث: منع شرب الماء عقب الذكر؛ لأنه يطفىء ما أورثه الذكر من الحرقة والشوق المهيج إلى المذكور، وهو المطلوب من الذكر. وقد يُنهى عنه من جهة الطب فربما يُورث الاستسقاء.

وهذه الآداب إنما تلزم الذاكر ما دام واعياً في عقله، وأمَّا إذا سلب الذكر اختيار الذاكر؛ فما جرى على لسانه من الأنواع المختلفة كلها محمود فإنها أسرار. فربما يجري على لسانه الله أو هو هو أو لا أو آ آ بالمد أو بالقصر أو آه آه أو هَا ها أو عياط بغير حرف أو صرع أو تخبط، فأدبه في ذلك أن يسلم نفسه لوارد يتصرف فيه كيف يشاء، وإذا استغنى الذاكر بذكر القلب، والاستغراق في الذكر، فلا حاجة لشيء من الآداب.

واعلم ـ يا أخي ـ وفقني الله وإياك لما يحبه ـ أن المريد له في ابتدائه حالات يترقى فيها، وهي الانتباه من الغفلة ـ وهو زجر النفس ومعرفتها ـ وعلامة الانتباه كثرة الاستغفار، وطلب العفو، والانهماك على الطاعات واليقظة ـ وهي انكسار النفس وتذليلها وعدم رُؤيتها ـ والتوبة وهي الندم والاستغفار على ذلك، والعزم أن لا يعود إلى ما عنه رجع من المخالفات والأهواء، وصحبة العلماء والاقتداء بهم، ثم يُلقي

نفسه إلى شيخ مُربٍّ، يقصده ويطيّب قلبه عليه ويختاره، ويغلب على ظنه أنه أرجح من غيره، ويتأنى في ذلك ولا يستعجل، ومتى رجح غيره عليه، أو ساوى بينه وبين غيره من الأشياخ، أو مالت نفسه إلى غير شيخه؛ فلا ينتفع به أصلاً، بل يقطع بأنه ليس في عصره مثله لئلا يشغل خاطِرَهُ بغيره؛ فيصير من قبيل مذبذب من بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولا يزدري أحداً من الأولياء فيحرم البَركة، بل أن يكون التفاته لشيخه فقط لأن نفعه منه خاصة، والله أعلم.

شروط الشيخ:

ومن شرط الشيخ أن يكون عالماً بالخواطر، والتواضع للمريدين بالتنزل إلى دَرجتهم، والرفق بهم وبسطهم؛ فيتدرج المريد ببركته إلى الانتفاع. ومن شرطه أن يُعاتب المريد على كل هفوة، فإن صفح عنه فهو إمام غاشٍ لرعيته، وأن يحفظ على المريد أوقاته، وأن لا يخرج على أصحابه إلا في أكمل صورة، وأن لا يُمكِّن أصحابه يزورون شيخاً آخر، ولا يجلسون مع أصحابه؛ لأنَّ لكل شيخ طريقة تخصُّه، لا يتعداها ولا يخلطها بغيرها؛ فيختلف على المريد الأمر فيوقفه، وربما تُسرع إليه المضرة إذا سمع من ذلك الشيخ أو أصحابه ما لا يوافق طريقة شيخه؛ فيجب على الشيخ سد هذا الباب على المريد. ومن فهم عن المشايخ من ذلك هذا لعزيزهم، أو اختصاصاً برياسة دونهم؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وافترى افتراءً عظيماً على المشايخ السادة الأجلاَّء، الذين طهّرهم الله من ذلك؛ إذ المشيخة على الحقيقة رتبة شريفة، ومنزلة رفيعة منيفة لها على الحقيقة يسمَّى شيخاً، ومرشداً، ومربياً، وقدوةً، وقارئاً، وأستاذاً ومعلِّماً، ومفيداً، وليس لها حدٌّ ينتهي إليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وآداب المريد مع شيخه: أن يسلِّم نفسَه إليه، ولا يبقى له معه إرادة البتة، ويكون كالطفل مع والديه، ويكون اعتقادُه فيه صحيحاً، ويجب عليه أن يحترمه، ويوقِّره، ويعظِّمه بأنواع التعظيم والاحترام، ويطيعه في جميع ما يأمره به من غير أن يسأله عن علة ذلك، أو عن فائدة ذلك، ولا يعترض عليه لا ظاهراً ولا باطِناً، ولا يملأ عينيه بالنظر إليه، ولا يدعوه باسمه.

وقالوا: ولا يجلس وركبته بركبته، ولا يمشي أمامه إلا بليل، ولا يجلس في مكانه، ولا ينطق بين يديه إلا جواباً له، أو سائلاً «عمَّا» يلزمه من أمر دينه، ولا يرفع صوته على صوته بكلام وضحك ونحو ذلك، ولا يجلس بحضرته متربعاً، ولا منكشفاً رجليه، ولا يبسط سجادته بحضرته إلا لصلاة، ولا يُفتي في مسألة بحضرته

إلا بإذنه، ومتى دخل عليه قَبَّل يده أو رأسه وأطرق، ويوقر مجلسه، ويجتنب صحبة الأغنياء، ويرى نفسه دون كل أحد في الفضل وغيره؛ كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لما سُئل عن التقوى. وإذا فتح عليه بشيء من طريق الله تعالى، أو وقع له شيء من وقائع الطريق، فلا يظهرُه على غير شيخه ـ خيراً كان أو شراً ـ فإن كتمه عنه كان غاشًا لنفسه، ساعياً في إتلافها، ويشاوره في كل أموره ووقائعه، فإن ذلك كله من بركته، ولا ينفرد عنه بواقعة من الوقائع، ولا أمر من الأمور، فإن أصابه شيء من خوف، أو نازلة، أو أمر مهم، أو غلبة شيطانٍ؛ فيفرّ إلى شيخه بقلبه، ويجعله نصب عينيه في حياة شيخه في حضرته وغيبته، ويطلعه على ما نزل به إن كان حاضراً، وإن كان غائباً شكا إليه بقلبه ويستصحب مثال الشيخ، ويصغي إلى قلبه، فمهما أمره به في قلبه أو سمع منه خِطاباً يمتثله، فإن لم يرَ شيئاً فلا يتركه فزعاً فإنه ينجح إن شاء الله تعالى.

ولا يستحسن شيئاً من نفسه في حضرة شيخه، بل ينسب نفسه للتقصير ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى بالقائد على شاطىء البحر؛ بحيث يُفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في رَدٍّ ولا صَد، ولا يبقى في متابعته شيئاً ولا يذره، ويعلم أنَّ منفعته في خطأ شيخه ـ لو أخطأ ـ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب.

ويُكرَهُ للمريد مُفارقة شيخه قَبْلَ انفتاح عين قلبه، بل يجب عليه أن يصبر تحت أمره ونهيه في خدمته.

وقال أبو العباس المرسي ـ رحمه الله تعالى ـ: كل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف عن قلبه القناع؛ فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دَعيٌّ لا نسب له، إن يكن له نُور فالغالب عليه غُلبَةُ الحال، ووقوفه مع ما يَردُ عليه، لم ترضه سياسَة التأديب، ولم يقعده زمام التربية والتدريب.

وأمَّا صلة الفقير، وخادم نعالهم، محمد سبط المرصفي، بطريق الشاذلية صحبةً وتلقيناً.

فعن سيدي وأستاذي شمس أئمة المحققين، تاج العارفين، وعين أعيان من ربَّى المريدين، شمس الدين محمد المدعو أبو القاسم المغربي الشاذلي، سمعت منه لا إله إلا الله ـ ثلاثاً ـ وقلت: لا إله إلا الله ـ ثلاثاً ـ وهو يسمع، ولقنني مَرَّة أخرى فقال: قل: الله الله الله فقلت: الله الله الله ـ وهو يسمع ـ ثم لقنني مرة أخرى فقال لي قل:

الله هو الله هو الله هو فقلت كما قال ـ وهو يسمع ـ وأذن لي بالتلقين، لمن طلبَ ذلك مني وأمرني به في حضرته ـ مِراراً ـ وأنا أمتنع أدباً معه، فكرر ذلك عليّ وقال: الامتثال عندهم من الآداب، وألزمني بذلك؛ فلقنت أشخاصاً بحضرته طوعاً لأمره، وكان وقتاً مشهوداً، وأخبرني أنه تلقن على شيخه سيدي محمد المغربي وصحبه، واستمرَّ في خدمته حتى مات، وهو صحب واقتدى بسيدي أبي العباس الحنفي السري، وهو صحب واقتدى بسيدي محمد الحنفي، وهو بالشيخ ناصر الدين بن ميلق وهو بجده لأمه أبي العباس أحمد بن ميلق السكندري الأصُولي، وهو بتاج الدين بن عطا الله السكندري.

ووجد بخط سيدي محمد الحنفي أن شهاب الدين أحمد بن ميلق تلقى عن ياقوت القرشي، وهو وابن عطاء الله أخذا عن أبي العباس المرسي الأنصاري، وهو عن أبي الحسن الشاذلي، وهو عن عبد السلام بن مشيش الشريف، وهو عن عبد الرحمٰن الشريف الحسني العطار ـ والمشهور بالزيات المدني ـ نسبة لمدينته ﷺ، ولم يعتد بغيره. والزيات نسبة بحارة الزياتين. وهو صحب واقتدى شيخه تقي الدين الفُقَيِّر بالتصغير فيهما، وفتح القافين منهما، وهو الذي سمَّى نفسه بذلك، وصحب واقتدى بالشيخ فخر الدين، وهو بأبي الحسن علي، وهو بتاج الدين، وهو بالملقب شمس الدين، وهو بالشيخ زين الدين القزويني، وهو بالشيخ أحمد المرواني، وهو بالشيخ سعيد، وهو بالشيخ سعد ـ هكذا من غير معرفة أسماء آباء بعضهم ـ وهو بالشيخ جابر، وهو بأول الأقطاب السيد الشريف الحسيب النسيب الصحابي الشهيد والسبط السعيد أبي الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو صحب واقتدى بجدّه سيدنا رسول الله ﷺ، انتهى.

وحكى سيدي إبراهيم في بعض كتبه عن شيخه أبي المواهب طريقاً فيما بين الحسن بن علي وجده ـ ﷺ ـ وهي أن أول من تلقى ذلك فاطمة الزهراء مدة حياتها، ثم انتقلت السيدة فاطمة، فانتقلت إلى السيد أبي بكر ثم إلى عمر ثم إلى عثمان ثم إلى الحسن بن علي، وهكذا ـ رضوان الله عليهم أجمعين.

مراتب الصحبة:

واعلم أن الصحبة ثلاثة أقسام:

الأول: صحبة من هو فوقك، وهي في الحقيقة خدمة.

وأدبُها: ترك الاعتراض، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، وتلقي أحواله بالإيمان به.

الثاني: صحبة الأكفاء والنظراء، وهي مبنية على الإيثار والفتوة.

وأدبُها: التعامي عن عيوب صاحبك، وحمل ما ترى منه على وجه من التأويل جميل ما أمكنك، فإن لم تجد تأويلاً عدت إلى نفسك بالتهمة والتزام الأئمة.

الثالث: صحبة من هو دونك، وهي تقضي على المتبوع بالشفعة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة.

وأدبُها: تبنيه الدون على ما فيه من النقصان. وقيل: كتب أبو الخير التيتهاني إلى جعفر بن محمد: وزر جهل الفقراء عليكم لأنكم اشتغلتم بنفوسكم «عما» بهم؛ فبقوا جهلة. تتمة لبيان طريق الأخذ.

مراتب الأخذ:

اعلم أن الأخذ على أربعة أقسام:

أحدُها: أخذ المصافحة، والتلقين للذكر، والَعذَبه، ولبس الخرقة للتبرك أو للنسبة فقط.

وثانيها: أخذ رواية، وهو قراءة كتبهم من غير حل لمعانيها؛ وقد يكون للتبرك أو للنسبَة أيضاً فقط.

وثالثها: أخذ دراية، وهو حل كتبهم لإدراك معانيها كذلك فقط، من غير عمل بها.

فهذه الأقسام الثلاثة لا وجود في الغالب لغيرها وليس على الآخذ حَرَجٌ في تعدد الأشياخ فيها بالغاً ما بلغوا.

ورابعها: أخذ تهذيب وتدريب، وتَرَقٍّ في الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة، والفناء في التوحيد، والبقاء به، فلا يتعداه المقتدي به إلا بإذنه أو بفقده، وهو المراد العزيز وجوده ـ أيها الأحباب ـ والحمد لله الملهم للصواب.

بيان التصوف والصوفي:

بيان التصوف والصوفي ومِمَّ هو مشتق، اختلف في اشتقاقه، فمنهم من قال: مشتق من لُبْس الصوف، يقال: تصوف إذا لَبِس الصوف؛ كما يقال تقمص إذا لبس القميص.

وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع صوت أهل التصوف يَدعُون، فلم يُؤمِّن عليهم؛ كتب عند الله من الغافلين**»[١] ومنهم من قال: إنهم منسوبون إلى أهل الصُّفَّة، وكانوا من أفضل الصحابة ورعاً وتوكُّلاً، وملازمة لخدمة رسول الله ﷺ. اختار الله لهم ما اختار لنبيه - ﷺ - من الفقر والسكينة والتفرغ لعبادة الله تعالى، وترك الدنيا لأهلها. وهم الطائفة المنتمية إليهم الصوفية قرناً بعد قرن.

ومنهم من قال: مشتق من الصَفّ؛ فكأنهم في الصف الأول من المحاضرة والملازمة للحضور.

ومنهم من قال: مشتق من الصَّفا، والصَّفا ممدوح بكل لسان، وضده الكودورة وهي مذمومة.

وفي المعنى:

تَخَالف الناس في الصوفيِّ واختلفوا ... فكلهم قال قولاً غير معروف
وليس يمنح هذا الاسم غير فتى ... صافي فصوفي حتى سُمّي الصوفي

وفي ذلك لهم كلام يطول ذكره. والأظهر أن هذا الاسم كاللقب والعَلَم لهذه الطائفة؛ لأنه لم يشهد له من حيث اللغة العربية قياس ولا اشتقاق؛ لأنَّ نسبته إلى الصفة لا يجيء على الصوفي، واشتقاق الصوفي من الصفا بعيد في مقتضى اللغة، وكذا اشتقاقه مِن الصف. وأمَّا اشتقاقه مِن لبس الصوف فذلك أقرب، ولكن لم يختصوا بهذا الاسم بلبس الصوف.

وأما معناه:

فقال **إبراهيم بن أدهم**: التصوف عُلوُّ الهِمم عما تنافست فيه الأمم؛ مخافة أن تزلَّ القَدمُ، والزهد فيما أحلَّ الله لا فيما حَرَّم.

والسَّرِيُّ: الصوفي هو الذي لا يُطفىء نورَ معرفته نورُ وَرَعه.

والجنيد: التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به. وقال: هو ترك الاختيار.

وبعضُهم: هو الدخول في كل خُلُقٍ سَنِيٍّ، والخروج عن كل خُلُق دَنِيٍّ.

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ورويم: التصوف استرسال النفس مع الله على ما يريد، أو مبني على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

والشِّبْلي: التصوف الجلوس مع الله بلا هَمٍّ.

والروذباري: هو الإقامة على باب الحبيب ولو طرد.

وقال **الفقير**: هو التحلِّي تجملاً بالصفات المحمودات ظاهراً وباطناً.

وأما الصوفيُّ، فقال الحسين بن منصور: وحداني الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحداً.

وقال **النخشبي**: الصوفي لا يُكَدِّره شيء، ويصفو به كل شيء.

وقال **ذو النون** عن أهل التصوف: هم قوم آثروا الله على كل شيء؛ فآثرهم على كل شيء.

وقال الفقير؛ هم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أو مَن هذه أخلاقه ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أو هو مأخوذ من لفظة صوفي؛ فالصاد صدقه وصبره وصفاؤه. والواو وجده ووده ووفاؤه. والفاء فقره وفقده وفناؤه. والياء ياء النسبة، **والله** أعلم.

بيان الفرق بين التصوف والفقر والزهد:

قال **السهروردي**: التصوف اسم جامع لمعاني الفقر مع مزيدٍ وإضافات ولا يكون الرجُلُ بدونها صوفياً، وإن كان زاهداً فقيراً.

قال: وقيل: نهاية الفقر مع تخوفه بداية التصوف.

وبعضهم لا يفرق بين التصوف والفقر. ويقولون: قال **الله**: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] هذا وصف الصوفية. **والله** تعالى سماهم فقراء.

أو الفرق بينهما أن يقال: الفقير في فقره متمسك به، متحقق بفضله، يؤثره على الغنى، متطلع إلى ما تحقق من العِوَض عند **الله**؛ حيث يقول **رسول الله** ﷺ: «**يدخل الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**»(١)

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (٨٤) [١/ ٣٣] وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٩٣٣) [٢/ ٢٩٦] ورواه غيرهما.

فكلما لاحظ العِوض الباقي أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر والقلة، وخشي زوال الفقر لفوات الفضيلة والعِوض؛ وهذا عين الإغفال في طريق الصوفي؛ لأنه تطلع للأعواض وترك لأجلها، والصوفي يترك لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة؛ فإنه ابن وقته، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل اختياراً منه وإرادة.

والاختيار والإرادة عِلّة في حال الصوفي؛ لأن الصُّوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه؛ فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه، ويعلم الإذن من الله في الدخول في الشيء، وقد يدخل في صورة سعة مباينة للفقر بإذن من اللّهِ، ويرى الفضيلة حينئذ في السعة لمكان أذن الله في ذلك، ولا يُفسح في السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن؛ وفي هذا منزلة إقدام وباب دعوى للمدعين، وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحَال.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف.

والفرق بين الفقر والزهد ظاهر، وهو أنَّ الفقير متحلٍّ بحلى مشتملة على محاسن كثيرة لا توجد في الزهد؛ من الاطراح والخمول، والتمزق، وخدمة الفقراء، والوجد، وخلع العِذار، والكياسة والرياضة والآداب، والتنقي من الأوصاف الذميمة؛ كالكبر، والعجب، والحسد وغيرها.

وعلى الجملة فمحاسن الزاهد بعض محاسن الفقير، ومحاسن الفقير بعض محاسن الصوفي.

ومما يؤيد فضل الفقر وشرفه، ما وقع لبعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله، والله إني خائف، فقال له ﷺ: لا تخف فإنك فقير.

وقيل لبعض الصالحين في المنام في شهر رمضان: أنت تموت على حب الله وحب رسوله، وعلى الطريقة المستقيمة.

قال: فقلت: وما هي الطريقة المستقيمة؟ فقيل لي: طريقة الفقراء.

اللهم أحينا وأمتنا على محبتهم ووفقنا لسلوك طريقهم، وأعد علينا وعلى المسلمن من بركتهم آمين.

بيان الفرق بين الصوفي والمتصوف والمتشبِّه:

قال السّهروردي رضي الله عنه: طريق الصوفي أوله إيمان ثم علم ثم ذوق، فالمتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير.

قال الجنيد رضي الله عنه: الإيمان بطريقنا ولاية؛ ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة، وآثار مستغربة عند أكثر الخلق؛ لأنهم مُكاشفون بالقدر وغرائب العلوم، وإشارتهم إلى عظيم أمرِ الله، والقرب منه، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل، فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عناية، فالمتشبِّه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم؛ لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها، والصوفي صاحب ذوق، فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفي، وللمتشبه ـ يعني الصادق ـ نصيب من حال المتصوف.

وهكذا سُنة الله جارية أنَّ كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أجلّ ممّا هو فيه، فيكون في حاله الأول صاحب ذوق، وفي حاله الذي كوشِفَ به صاحب علم، وبحالٍ فوق ذلك صاحب إيمانٍ، لا يزال طريق الطلب مسلوكاً؛ فيكون في حال الذوق صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفي حالٍ فوق ذلك صاحب إيمان.

والصوفي في مقام الروح صاحب مشاهدة، والمتصوف في مقام القلب صاحب مراقبة، والمتشبِّه في مقاومة النفس صاحب مجاهدة ومحاسبة، فتلوين الصوفي بوجود قلبه، وتلوين المتصوف بوجود نفسه، والمتشبه لا تلوين له؛ لأن التلوين لأرباب الأحوال، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال.

والكل يجمعهم دائرة الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال بعضهم: الظالم يجزع من البلاء، والمقتصد يصبر عند البلاء، والسابق يتلذذ بالبلاء.

وقال بعضهم: الظالم يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة، والسابق يعبد على الهيبة والمنّة.

وقال بعضهم: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

قال: وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفي والمتصوف والمتشبه، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح.

ثم روي بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: ٣٢]: «**كلهم في الجنة**»(١) وقال بعضهم: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق فيه. وأقوالهم هذه في الآية الكريمة مناسبة لأحوالهم، وأقوال المفسرين معروفة.

فالمتشبه بالصوفية إنما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف لمحبته إيَّاهم، وهو مع قصوره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته، وقد ورد في الخبر «**المرءُ مع من أحب**»(٢)

وورد عن **أبي ذرٍ** رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم. قال: «**أنت يا أبا ذر مع من أحببت**» قلت: فإني أحبُّ الله ورسوله. قال: «**فإنك مع من أحببت**»(٣)

حكي عن بعض السَّادَة الأجلاَّء أنَّ رجلاً من أبناء الدنيا جاء إليه يريد منه الخرقة. فأرسله إلى شخص من أعيان أصحابه يكلمه في معنى الخرقة، ثم يرجع إلى الشيخ فيلبسه بعد ذلك. فلما ذهب إلى الشخص المذكور فذكر له حقوق الخرقة، وما يجب عليه من رعاية حقها، وآداب من لبسها، ومن يؤهل لها، فاستعظم الرجل ذلك الحقوق، وجبن عن لبسها، فبلغ الشيخ ذلك فعاتبه وقال له: أنا بعثته إليك لتكلمه فيما يزيده رغبة في الخرقة، فكلمته بما فَتَر غَزيمته، ثم قال له: الذي ذكرته كله

---

(١) الطيالسي في مسنده، عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (٢٢٣٦) [١/٢٩٦] وابن المبارك في الزهد، حديث رقم (١٥٧١) [١/٥٤٨] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عزّ وجل..، حديث رقم (٥٨١٦) [٥/٢٢٨٣] ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (٢٦٤٠) [٤/٢٠٣٤] ورواه غيرهما.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن محبة المرء..، حديث رقم (٥٥٦) [٢/٣١٥] وأبو داود في سننه، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إليه، حديث رقم (٥١٢٦) [٤/٣٣٣] ورواه غيرهما.

صحيح، وهو الذي يجب من حقوق الخرقة، ولكن إذا ألزمنا المبتدىء بذلك نَفَر وعجز عن القيام به، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم؛ فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم، وببركة مخالطته لهم ونظرِه إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يسلك مسلكهم، ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم.

فالمتشبِّه الحقيقي له إيمان بطريق القوم، وعمل بمقتضاه، وسلوك واجتهاد، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة، ثم يصير متصوِّفاً صاحب مراقبة، ثم يصير صوفياً صاحب مشاهدة.

فأمَّا من لم يتطلع إلى حال المتصوف والصوفي بالتشبه، ولا يقصد أوائل مقاصدهم، بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة، والمشاركة في الزِّيِّ والصورة والسيرة والصفة، فليس بمتشبه بالصوفية لأنه غير مُحاكٍ لهم بالدخول في بداياتهم، فإذا هو متشبِّه بالمتشبِّه يعتزي إلى القوم بمجرد لبسه، ومع ذلك **«هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»**(١).

وقد ورد: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(٢) والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم في في صحيحه، باب فضل مجالس الذكر، حديث رقم (٢٦٨٩) [٤/ ٢٠٦٩] والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء..، حديث رقم (١٨٢١) [١/ ٦٧٢] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

خاتمة
في إثبات كرامات الأولياء، وبعض آثار من مناقبهم، وذكر خروجهم من الدنيا وفي رؤيا القوم بعد الخروج منها

وبها نختم الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ وفقني الله وإياك لما يقرب منه قولاً وفعلاً ونية.

إن ظهور الكرامات على الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ جائز عقلاً، وواقع فعلاً.

أمّا جوازه في العقل فلأنه ليس بمستحيل في قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات؛ كظهور معجزات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين، والنظار الأصوليين والفقهاء والمحدثين رضي الله عنهم أجمعين، وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقاً وغرباً عجماً وعرباً.

وأمّا وقوع ذلك بالنقل ـ أعني ظهور الكرامات ـ فقد جاء في القرآن الكريم والأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتِعْداد؛ فمن ذلك في القرآن ما أخبر الله تعالى عن مريم رضوان الله عليها بقوله عزّ وجل: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ٣٧]. وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهكذا جاء في التفسير.

وقوله سبحانه وتعالى في مريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريَم: ٢٥] وكان في غير أوان الرطب كما في التفسير.

وكذلك إلهام أمّ موسى ﷺ وعلى نبينا في أمره ما هو معروف.

وكذلك ما أخبر الله تعالى من العجائب على يد الخَضِر رضي الله عنه مع موسى عليه السلام.

وكذلك قصة ذي القرنين(١) رضي الله عنه وتمكين الله له ما لم يمكنه لغيره.

وكذلك قصة أصحاب الكهف(٢)، والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم وغير ذلك.

وكذلك قصة آصف بن برخيا(٣) رضي الله عنه مع سليمان عليه السلام في عرش بلقيس في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء.

ومن ذلك في الأخبار حديث جريج الراهب الذي كلمه الطفل في المهد وهو حديث صحيح أخرجاه في الصحيحين.

وحديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفرجت عنهم، وهو حديث متفق على صحته مذكور في الصحيحين.

وحديث البقرة التي كلمت صاحبها، وهو حديث مشهور صحيح.

والحديث المذكور في الصحيحين مع أبي بكر رضي الله عنه وأضيافه، وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات.

وكذلك اشتهر عن أبي بكر أيضاً أنه أخبر أن حمل امرأته أنثى، فكان كذلك.

وحديث الصحيحين المتفق على صحته في عمر رضي الله عنه أنه كان من المحدَّثين «بفتح الدال».

وكذلك ما صحّ عنه أنه قال: «يا سارية الجبل» في حال خطبته في يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية، فكان لعمر رضي الله عنه في ذلك كرامتان، أحديهما: ما كشف الله عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو.

والثانية: بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة.

---

(١) ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٨٥].

(٢) المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٠ ـ ١٣] وغيرهما من الآيات.

(٣) المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النّمل: ٤٠].

والحديثان المتفق على صحتهما في **سعد وسعيد** رضي الله عنهما في إجابة دعوة كل واحد منهما، والحديث الصحيح في البخاري في **خبيب** رضي الله عنه في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوان الثمار، وحديث البخاري الصحيح في **أُسيد بن حُضير وعباد بن بشر** رضي الله عنهما اللذين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، والحديث الصحيح حديث الرجل الذي سمع صوتاً في السحاب يقول: اسقِ حديقة فلانٍ. وما جاء أنَّ **ابن عمر** رضي الله عنهما قال **للأسد** الذي منع الرسول الطريق: تنح، فبصبص بِذَنَبه وذهب، وما جاء أن رسول الله ﷺ بعث **العلاء بن الحضرمي** رضي الله عنه في غزاة، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر، فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء، وما جاء أنه كان بين **سلمان وأبي الدرداء** رضي الله عنهما قصعة فسبحت حتى سمعا التسبيح، وكذلك ما اشتهر أن عمران بن حصين رضي الله عنه كان يسمع تسليم الملائكة عليه، حتى اكتوى فانحبس عنه ذلك، ثم أعاده الله إليه، والحديث الصحيح حديث **مسلم** قال: قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه**». ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى دليلاً، وقد ورد عن السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ العارفين، والفقراء الصادقين وسائر الأولياء والصالحين، من الكرامات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات ما طبق الآفات وملأ جميع البلاد، وعجزت الدفاتر عن اليسير منه في الحصر والتعداد.

قال **أبو نصر السراج**: دخلنا **تُستر** فرأينا في قصر **سهل بن عبد الله** بيتاً كان الناس يسمُّونه بيت السبع، فسألنا الناس عن ذلك، فقالوا: كان السباع تجيء إلى **سهل** فكان يدخلها هذا البيت ويضيفها فيطعمها اللحم ثم يخليها. قال **أبو نصر**: ورأيت أهل **تُستر** كلهم متفقين على هذا لا ينكرونه وهم الجمع الكثير.

وعن **آدم بن أبي إياس** قال: كنا **بعسقلان** وشاب يغشانا ويجالسنا يتحدث معنا، وإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي، فودعني يوماً وقال: أريد **الإسكندرية**، فخرجت معه وناولته دريهمات، فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفاً من الرمل في ركوته، واستقى من ماء البحر وقال: كله، فنظرت فإذا هو سويق بسكر كثير، فقال: من كان حاله معه مثل هذا أيحتاج إلى دراهمك؟ ثم أنشأ يقول:

بحق الهوى يا أهل ودي تفهموا ... لسان وجود بالوجود غريب
حرام على قلب تعرض للهوى ... يكون لغير الحق فيه نصيب

وليس في القلب والفؤاد جميعاً موضع فارغ لغير الحبيب
وهو سؤلي وهمتي وحبيبي وبه ما حييت عيشي يطيب
وإذا ما السقام حلّ بقلبي لم أجد غيره لسقمي طبيب

وفي رسالة **القشيري** بإسناده فيها: عن **عبيد البُسري** رضي الله عنه أنه غزا سنة من السنين فخرج في **السرية**، فمات **المهر** الذي كان تحته وهو في البرية: فقال يا رب أعرناه حتى نرجع إلى **بُسر**، يعني قريته، فإذا المهر قائم، فلما غزا ورجع إلى بُسر قال لابنه: يا بني خذ السرج عن المهر، قال ابنه: فقلت إنه عرق، فإن أخذت السرج داخله الريح، فقال: يا بني إنه عارية. فلمّا أخذت السرج وقع **المهر** ميتاً. وفيها أيضاً أنه انطلق رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطريق مات **حماره**، فقام فتوضأ ثم صلّى ركعتين ثم قال: **اللهمَّ** إني جئت مجاهداً في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تحيي الموتى وبعث من في القبور، لا تجعل لأحد عليَّ منَّة اليوم أطلب إليك أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه.

وفيها عن **محمد بن سعيد البصري** أنه رأى أعرابياً يسوق **جَمَلاً**، فالتفت فإذا **الجمل** وقع ميتاً ووقع الرحل والقتب[1]، فمشيت ثم التفت فإذا الأعرابي يقول: يا مسبب كل سبب ومأمول من طلب، رُدّ عليّ ما ذهب يحمل الرحل والقتب، فإذا **الجمل** قائم والقتب فوقه.

وعن **سهل بن عبد الله** رضي الله عنه أنه قال: الذاكر لله على الحقيقة لو همّ أن يحيي الموتى لفعل، يعني بإذن الله ومسح يده على عليل بين يديه فبَرِأ وقام.

وكان الشيخ **مفرج الدماميلي** عبداً حبشياً أحضرت عنده **فراخ** مشوية، فقال لها طيري فطارت أحياء بإذن الله. وحكي عن **الأهدل** أن **هِرَّة** كانت عنده يطعمها من عَشائه، وكان اسمها لؤلؤة، فضربها خادم الشيخ ذات ليلة فماتت ورمى بها لئلا يعلم الشيخ فسكت عنه ليلتين أو ثلاثاً ثم قال له: أين لؤلؤة فقال: ما أدري، فقال الشيخ: ما تدري؟ ثم ناداها الشيخ لؤلؤة لؤلؤة، فجاءت إليه تجري فأطعمها.

ويحكى أنه توفي بعض أصحاب **أبي يوسف الدهماني** رضي الله عنه فجزع عليه أهله، فلما رأى الشيخ شدة جزعهم عليه، قال له: قم بإذن الله فقام وعاش بعد ذلك ما شاء الله من الزمان.

---

(١) القتب: رحل صغير على قدر السنام.

وإحياء الموتى كرامة لهم، فهو وإن كان عظيماً فهو جائز على القول الصحيح المختار عند المحققين من النظار المدققين، كما قدمناه عن أئمة الأصول المشهورين المعتمدين، **أن ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لوَلِيٍّ بشرط أن لا يدّعي النبوة.**

ومن المشهور عن سيدي **عبد القادر الكيلاني** ـ قدّس الله روحه ـ أن امرأة جاءت إليه بولدها وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا شديد التعلق بك، وقد خرجت عن حقي فيه لله تعالى ولك، فقبّله الشيخ وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق، فدخلت أمه عليه يوماً فوجدته نحيلاً مُصْفراً من آثار الجوع والسّهر، ووجدته يأكل قرصاً من شعير، فدخلت إلى الشيخ فوجدت بين يديه إناءً فيه عظام دَجَاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت: يا سيدي تأكل لحم الدجاج ويأكب ابني خبز الشعير؟! فوضع يده على تلك العظام وقال: قومي بإذن الله الذي يحيي العظام وهي رميم، فقامت دجاجة سوية وصاحت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما شاء. قالوا: مرت على مجلسه حدأة «طائرة» في يوم شديد الريح، فصاحت فشوشت على الحاضرين، فقال: يا ريح خذي رأس هذه الحدأة، فوقعت لوقتها في ناحية ورأسُها في ناحية، فنزل الشيخ من على الكرسي، وأخذها في يده، وأمَرَّ يَدَهُ الأخرى عليها وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فحييت وطارت والناس يشاهدون ذلك.

ومنها كلام الموتى لهم؛ فقد روى **اليافعي في نشر المحاسن** عن **إسماعيل الحضرمي** رضي الله عنه أنه كان في مقبرة زيد ومعه العلاّمة **محب الدين الطبري** فقال له: **يا محب الدين** أتؤمن بكلام الموتى؟ قال له: نعم يا سيدي منك، فقال: إنَّ صاحب هذا القبر يقول لي: أنا فلان ابن فلان من حشر الجنة.

وقال **أبو سعيد الخراز**: كنت مجاوراً **بمكة** حرسها الله تعالى، فجزت يوماً بباب **بني شيبة**، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً، فنظرت في وجههِ فتبسم في وجهي وقال لي: يا **أبا سعيد**، أما علمت أن الأحبَّاء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلبون من دارٍ إلى دار.

وقال **اليافعي في نشر المحاسن**: أخبرني بعض الأولياء من شيوخ **اليمن**، أنه كلّمهُ السيد الجليل العارف بالله الكبير **محمد ابن أبي بكر الحكمي** ـ قدس الله روحه ـ بعد أن انشق قبره، وخرج إليه منه وهو مشدود الوسط، قال: فقلت له: يا سيدي أراك مشدود الوسط، فقال: نحن بعد في الطلب، من زعم أنه قد وصل فقد كذب؛ لأنه لا يوصل إلا إلى محدود، **والله** يتعالى عن النهايات والحدود.

[بيان معنى الوصال والوصل والوصول والاتصال]:

بيان معنى قول المشايخ رضي الله عنهم فلان قد وصل وذكرهم الوصال والوصل والوصول والاتصال، والجمع بين كلامهم وكلام **الحكمي** المكذب من ادعى الوصول أن مراد الشيخ المذكور أنَّ من توهم أنه قد وصل إلى مقام ليس فوقه مقام، أو إلى نهاية ليس فوقها مطلب فقد كذب، لأن فضل الله ليس له نهاية، فما من مقامٍ إلا وفوقه مقام يمكن أن يصل إليه العبد بفضل الله تعالى.

ومراد من أطلق من الشيخ لفظ الوصول وما في معناه من الألفاظ المذكورة الوصول إلى مقامٍ معلومٍ عندهم يصل الولي فيه إلى الأشياء من المشاهدات للصفات، والاطلاع على عالم الملكوت والمعارف والأسرار، وغير ذلك مما لا يطلع عليه غيرُهم، مع اعتقادِهم أنَّ فوق ذلك مقامات ليس لها نهاية، وهذا كما نقول في جماعةٍ من الأئمة إنهم بلغوا رتبة الاجتهاد ـ مع علمنا أنَّ ذلك ليس هو نهاية العلم، فمن بلغ تلك الرتبة يقال له مجتهد، ومن تعدَّاها يقال له مجتهد مع التفاوت وعدم البلوغ إلى نهاية لا يستفيد المجتهد بعدها علماً، وفي المعارف: أن كل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون. فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلِّي فينفي فعله وفعل غيرِه لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار؛ وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والكمال، وهذا تجلي بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول.

ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً باطنه على **أنوار اليقين والمشاهدة**، مغتباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين؛ وهذا المقام رتبة في الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمحٌ، وهو سريان نور المشاهدة في كليَّة العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه؛ وهذا من أعلى رتب الوصول.

وإذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه يعد في أول المنازل. وأين الوصول؟! هيهات، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنياوي، **والله أعلم**. ومنها:

[كرامة] انغلاق البحر وجفافه:

ففي **رسالة القشيري** رضي الله عنه قال: كنا في مركبٍ فمات رجل عليل كان معنا، فأخذنا في تجهيزه وأردنا أن نلقيه في البحر، فصار البحر جافاً ونزلت السفينة فخرجنا وحفرنا له قبراً ودفنّاه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفع المركب وسِرْنا.

وفي **نشر المحاسن لليافعي** أنَّ في بعض التصانيف حُكي أنه مات بعض الفقراء في سفينة، قال الراوي: فأردنا إلقاءه في البحر، فرأيت البحر قد انشق نصفين ونزلت السفينة إلى الأرض، فخرجنا وحفرنا له قبراً ودفناه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفعت السفينة وسرنا والله أعلم. ومنها:

[كرامة] انقلاب الأعيان:

اعلم أن هذا النوع مما كثر وقوعه لهم واشتهر عنهم، كانقلاب الحصى جواهر وذهباً لكثير منهم، وانقلاب ماء البحر عذباً لبعضهم، ولبعضهم سمناً، ولبعضهم مع الرمل سويقاً وسكراً، ولبعضهم نشارة الخشب دقيقاً، ولبعضهم الحطب ذهباً وغير ذلك مما يتعذر حصره. وهذه الأشياء مشهورة مذكورة في الكتب المشتملة على بعض كرامات الأولياء كالرسالة وغيرها.

وأعجب من ذلك كله انقلاب الخمر سمناً، كما اشتهر ذلك ورواه الكبار من الشيوخ وغيرهم عن الشيخ الكبير العارف بالله **عيسى الهتار اليمني** قدس الله روحه، في حكايةٍ عجيبةٍ مختصرها أنه مرَّ على امرأة بَغِيٍّ، فقال لها: بعد العشاء آتيك. ففرحت بذلك وتزينت، فلما كان بعد العشاء دخل عليها البيت، فصلّى ركعتين ثم خرج، فقالت: أراك خرجت، فقال: حصل المقصود، فورد عليها وارد أزعجها عما كانت عليه، وخرجت بعد الشيخ وتابت على يديه، فزوّجها لبعض الفقراء وأمرهم يعملوا وليمتها عصيدة ولا يشتروا لها إداماً، ففعلوا وأحضروه وحضر الفقراء والشيخ معهم كالمنتظر لشيء يؤتى به، فوصل الخبر إلى أمير كان صاحب تلك المرأة؛ فأرسل للشيخ قارورتين مملوءتين خمراً وقال للرسول ـ على سبيل الاستهزاء بالشيخ والفقراء وأن يفضحهم ـ: قد سرَّ الأمير ما سمع وبلغه أن ما عندكم إدام فخذوا هذا تأدّموا به، فلما أقبل الرسول قال له الشيخ: أبطأت، ثم تناول إحداهما فحضنها وصبّها، ثم كذلك الأخرى ثم قال للرسول: اجلس فكل فأكل فطعم سَمْناً لم يرَ مثله طعماً وريحاً ولوناً، فرجع الرسول وأخبر الأمير فجاء الآخر وأكل وتحير مما رأى فتاب أيضاً على يد الشيخ والله أعلم.

قال **اليافعي في نشر المحاسن**: ومن أتم الكرامات، وأعظم من ذلك كله وأعز وقوعها، ما رويناه عن جماعة من الصالحين رووا عن بعض الأولياء الكِبار أنه طلب منه بعض الناس أن يدعو **الله** أن يرزقه ولداً ذكراً فقال له: إن أحببت فسلِّم للفقراء مائة دينار فسلَّم إليه ذلك. ثم جاءه الرجل بعد ذلك وأخبره فقال: إن امرأتي وضعت أنثى وكنت وعدتني بذَكَر، فقال له الشيخ: دنانيرك التي سلمتها إلينا ناقصة.

فقال له: ناقصة شيئاً يسيراً، فقال له الشيخ: ونحن ما نقصناك إلا شيئاً يسيراً، فإن أحببت أن نوفيك فوفِّ لنا، فذهب الرجل ليوفيه وعاد، فقال له الشيخ: قد وفينا لك كما أوفيت فرجع الرجل لمنزله فوجد الولد غلاماً بقدرة الله تعالى وإكرامه لأوليائه.

وقال لي سيدي وشيخي العارف بالله تعالى: كان سيدي **محمد المغربي شيخي** يأتيني بقراقيش العيش وأنا في الخلوة عند الفطر، فيأمرني فأصب ماء في إناء عندي ثم يضع القراقيش فيه فآكل منها، فإذا هي عيش مفتوت في لبن. وكراماتهم أكثر من أن تحصر والله أعلم.

وحُكي عن **سيدي عبد القادر الكيلاني** أنه خرج يوماً لصلاة الجمعة، فمرَّ في الطريق ثلاثة أحمال خمر للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدت، ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا فلم يفعلوا وأسرعوا في سوق الدوابِّ، فقال الشيخ للدواب: قفي فوقفت مكانها كأنها جمادات فضربوها ضرباً عنيفاً فلم تتحرك من مواضعها، وأخذهم كلهم القولنج وجعلوا يتقلبون على الأرض يميناً وشمالاً من شدة ألمهم، وضجُّوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة والاستغفار؛ فزال عنهم ألمهم؛ فانقلبت رائحة الخمر برائحة الخلِّ ففتحوا الأواني فإذا هي خَلٌّ، ومشت الدواب فَعَلَت أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع وانتهى الخبر إلى السلطان فبكى رعباً، وارتد عن فعل كثيرٍ من المحرَّمات، وجاء إلى الشيخ زائراً وكان بعد ذلك يجلس بين يديه متواضعاً صاغراً.

وروي عن بعضهم قال: بينما أنا أسير في فَلاَة من الأرض إذا برجل يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطباً، فسلمت عليه؛ فقال: وعليك السلام تقدم وكل، فتقدمت إلى الشجرة فكلما أخذت منها رُطَباً عادت شوكاً، فتبسَّم الرجل وقال: هيهات لو أطعته في الخلوات أطعمك الرطب في الفلوات. ومنها:

[كرامة] علمهم ببعض الحوادث قبل وجودها والاطلاع على ضمائر الخلق:

كما قدمناه عن **أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما بين لأبي بكرٍ من حال الحمل في بطن امرأته وما كشف **لعمر** من حال **سارية** ومن معه من المسلمين وحال العدو، وما أخبر عنه ﷺ من كونه من المحدَّثين.

وقال في **نشر المحاسن**:

روينا في الرسالة عن **أبي يعقوب السوسي** رضي الله عنه قال: جاءني مريد بمكة فقال: بلى يا أستاذ أنا غداً أموت وقت الظهر، فخذ هذا الدينار فأحضر لي بنصفه قبراً وكَفِّنِّي بنصفه الآخر، ثم لما كان الغد وقت الظهر جاء وطاف ثم تباعد ومات، فغسلته ووضعته في اللحد، ففتح عينيه فقلتُ أحياة بعد موت. فقال: أنا حيٌّ وكل محب لله حيٌّ.

وقال **أبو سعيد الخراز** رضي الله عنه: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي: مثل هذا كَلٌّ على الناس. فنظر إليَّ وقال: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥]. فاستغفرت في سرِّي فناداني: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال **خير النسّاج**: كنت جالساً في بيتي، فوقع لي أن **الجنيد بالباب**، فنفيت عن قلبي، فوقع ثانياً وثالثاً، فخرجت فإذا أنا **بالجنيد** فقال: لِمَ لم تخرج مع الخاطر الأول؟

وقال الفقير مؤلفه: قد وقع لي خاطر الحج في بعض السنين فبينما أنا أمشي في بعض شوارع مصر المحروسة، وأنا أحدِّث نفسي هل أكون من الوافدين على البيت الحرام، الواقفين في عرفة في هذا العام؟ فالتفت إلى رجل يبيع امرأة حلوى ملفوفة على عصا، ووجَّه الخطاب إليّ وقال: لبيك اللهم لبيك وكررها مرتين فحججت في تلك السنة.

ووقع لي أيضاً نحو هذه الحكاية بعدها، فبينما أنا أمشي في شارع المناخليين بمصر المحروسة، وأنا أحدِّث نفسي هل أزور **النبي** ﷺ في هذا العام وأعود سالماً، فالتفت إليَّ رجلٌ يمشي مسرعاً وقال: تزور النبي وتجيء في خير مرتين أيضاً. وحدثني الثقة من تلامذة جَدِّي العارف بالله تعالى **علي بن خليل المرصفي**: أنه زار سيدي **عمر بن الفارض** هو وجماعة ووجدوا في حائطٍ عند ضريحه:

وإن كانت الأجساد مِنّا تباعدت فإنَّ المدى بين القلوب قريب

فقال بعض الجماعة: صوابه عنا تباعدت، وقال بعضهم منا تباعدت بالميم، فقال: ثم رجعت إلى سيدي **علي** المذكور، وهممت أن أسأل عن الصواب في ذلك، فبادرني قبل أن أسأله، وقال لي: الصواب منا تباعدت بالميم، ومنها:

[كرامة] انزواء الأرض لهم وهو أفضل من الطيران في الهواء والمشي على الماء.

حُكي أن بعضهم كان في جامع طرسوس فاشتاق إلى زيارة الحرم، فأدخل رأسه في جيبه ثم أخرجه وهو في الحرم.

وكذلك اجتمع جماعة في بعض البلدان البعيدة في يوم عرفة، فاغتسلوا وصلُّوا وأحرموا، ثم سجدوا سجدة مكثوا فيها ما شاء الله ثم رفعوا رؤوسهم، فإذا هم ينظرون الجمال سائرة من مِنىً إلى عرفة.

وعن **سهل بن عبد الله** رضي الله عنه قال: توضأت في يوم جمعة، فمضيت إلى الجامع في أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس، فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول فجلست، وإذا عن يميني شاب حسن المنظر طيب الرائحة عليه أطمار الصوف، فلما نظر إليّ قال: كيف تجدك **يا سهل**؟ قلت: بخير أصلحك **الله**، وبقيت متفكراً في معرفته لي وأنا لم أعرفه، فبينما أنا كذلك إذ أخذني حرقان بول فأكربني، فبقيت على وجل خوفاً أن أتخطى رقاب الناس، وإن جلست لم تكن لي صلاة، فالتفت إليّ وقال: **يا سهل** أخذك حرقان بول؟ قلت: أجل. فنزع إحرامَهُ عن منكبه فغشاني به ثم قال: اقض حاجتك وأسرع تلحق الصلاة، قال: فغمي عليّ وفتحت عيني وإذا بباب مفتوح فسمعت قائلاً يقول: لج الباب يرحمك **الله** ـ فولجته وإذا بقصر مشيد عالي البنيان، شامخ الأركان، وإذا بنخلة قائمة وإذا جنبها مطهرة مملوءة ماءً أحلى من الشُّهْد، ومنزل إراقة الماء، ومنشفة معلقة وسواك، فحللت لباسي وأرقت الماء ثم اغتسلت وتنشفت بالمنشفة، فسمعته ينادي ويقول: إن كنت قضيت أربك فقل نعم، فنزع الإحرام عنّي فإذا أنا جالس في مكاني ولم يشعر بي أحد؛ فبقيت متفكراً في نفسي فيما جرى، فقامت الصلاة فصلّى الناس وصليت معهم، ولم يكن لي شغل إلا الفتى لأعرفه، فلما فرغت تبعت أثره فإذا به قد دخل إلى درب فالتفت إليَّ وقال: **يا سهل** كأنك ما أيقنت بما رأيت؟ قلت: كلا، قال: لج الباب يرحمك **الله**، فنظرت الباب بعينه، فولجت القصر، فنظرت النخلة والمطهرة والحال بعينه والمنشفة مبلولة، فقلت: آمنت **بالله**، فقال: **يا سهل** من أطاع **الله** أطاعه كل شيء، **يا سهل** اطلبه تجده؛ فتغرغرت عيناي

بالدموع، فمسحتهما وفتحتهما فلم أرَ الفتى ولا القصر، فبقيت متحسِّراً على ما فاتني منه ثم أخذت في العبادة والله أعلم.

ومنها [كرامة] **انفجار الماء لهم:**

ففي رسالة **القشيري**: أنَّ **أبا تراب النخشبي** رضي الله عنه قال له بعض أصحابه في طريق مكة: أنا عطشان، فضرب برجله الأرض فإذا عين ماء زلال، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح، فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقانا وما زال القدح معنا إلى مكَّة.

وعن **أبي عبد الله القرشي** ـ «قدس الله روحه» ـ أنه جاء إلى بئر من آبار مِنًى بركوته يطلب ماء وهو عطشان، فضربه بعض من كان على البئر ورمى بركوته بعيداً، قال الشيخ: ومضيت إليها لآخذها وأنا منكسر النفس، فوجدتها في بركة ماء حلو، فاسنقيت وشربت وجئت بها إلى أصحابي فشربوا، وأعلمتهم بالقصة فمضوا إلى المكان ليستقوا منه فلم يجدوا ماء ولا أثر الماء، فعلمت أنها آية. ومنها:

[كرامة] كلام الجمادات والحيوانات لهم:

من ذلك الحكاية المشهورة عن **محمد بن المبارك الصوري** رحمه الله في مخاطبة شجرة الرُّمان لإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه في طريق بيت المقدس وقولها له: يا أبا إسحاق أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً، قالت ذلك ثلاث مرات، وكانت شجرة قصيرة ورمانها حامضاً وتحمل في السنة مرةً، فلما أكل منها صارت طويلة ورمانها حلواً، وتحمل في السنة مرتين، فسموها رمانة العابدين ويأوي إلى ظلها العابدون، وهذا مختصر الحكاية.

وقال الشبلي رضي الله عنه: عقدت عزماً أن لا آكل إلا من الحلال، فكنت أدور في البراري، فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكلها، فنادتني الشجرة احفظ عليك عقدك، ولا تأكل منِّي فإني ليهودي.

وقال الشيخ **أبو عبد الله القرشي** رضي الله عنه: بينما أنا أسير على بعض السواحل إذ خاطبتني حشيشة: أنا شفاء هذا المرض الذي بك، فلم أتناول منها ولم أستعملها. وقال بعضهم: رأيت الجمال والمحامل عليها، وقد مدت أعناقها في الليل فقلت: سبحان من يحمل عنها ما هي فيه، فالتفت إليّ جمل فقال لي: قل جلَّ الله، فقلتُ: جلَّ الله.

وروي عن بعضهم أنه كان يضرب رأس حمار تحته، فرفع الحمار رأسه وقال: اضرب أو لا تضرب فإنما تضرب على رأسك.

وقد صحّ في الحديث كلام البقرة التي كلمت صاحبها وقالت: إنما خلقت للحرث. وقال ﷺ في آخر الحديث: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»(١) لما قال الناسُ: سبحان الله أبقرة تتكلم؟ ومنها:

[كرامة] إبراء العليل ببركتهم:

روي أنه ظهر **بيعقوب بن الليث** علة أعيت الأطباء، فقيل له: في ولايتك رجل صالح يقال له **سهل بن عبد الله** فلو استحضرته لعله يدعو لك، فأحضره وسأله الدعاء، فقال: كيف يستجاب دعائي لك وفي سجنك محبوسون؟ فأطلق كل من كان في السجن، فقال **سهل**: اللهمَّ كما أريته ذلَّ المعصية فأره عزَّ الطاعة، فخرج عنه، فعوفي، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبل، فقيل له: لو قبلته وفرقته على الفقراء!! فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال: من أعطي مثل هذا لا يحتاج إلى مال **يعقوب ابن الليث**؟.

وعن **السري السَّقطي** رضي الله عنه: كنت أطلب رجلاً صديقاً مدة من الأوقات، فمررت في بعض الجبال فإذا أنا بجماعة زَمْناً وعميان ومرضى، فسألت عن حالهم، فقالوا: هاهُنا رجل يخرج في السنة مرة يدعو لهم فيجدون الشفاء، فصبرت له حتى خرج فزعاً لهم فوجدوا الشفاء، فقفوت أثره وتعلقت به وقلت له: بي علة باطنية فما دواؤها. فقال: يا سريّ خَلِّ عنّي، فإنه غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه.

وروي عن العارف الكبير أحمد بن موسى بن عجيل اليمني رضي الله عنه، جاءه بعض الناس وفي يده سلعة، فقال: ادع الله أن يزيل عني هذه السِّلعة، وإلا ما بقيت أُحسن ظني بأحد من الصالحين، فقال له: لا حول ولا قوة إلا بالله، ومسح على يده وربط عليها بخرقة وقال: لا تفتحها حتى تصل إلى منزلك، فلما كان في بعض الطريق أراد أن يتغدى، ففتح يده لبأكل وكانت في كفه اليمين فلم يرَ لها أثراً.

ومنها:

---

(١) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء [١٨/ ٢٣٠] وابن عبد البر في الاستيعاب [٣/ ٩٦٦ ـ ٩٦٧].

[كرامة] طاعة الأشياء لهم:

روي عن **أبي الغيث بن جميل** ـ قدس الله روحه ـ أنه حَمَلَ حَطباً على ظهر **أسد** افترس **حماره**، فقال له: وعزة المعبود ما أحمل **حطبي** إلا على ظهرك، فخضع له فحمل **الحطب** على ظهره وساقه إلى باب البلد ثم حطَّ عنه وخلاَّه.

وروي عن الولية العارفة بالله **شعوانة** رضي الله عنها، أنها رزقت ولداً فربّته أحسن تربية، فلما كبر ونشأ قال لها: سألتك بالله يا أماه إلا ما وهبتني لله سبحانه وتعالى، فقالت له: يا بني إنه لا يصلح أن يهدى للملوك والرؤساء إلا أهل الأدب والتقى، وأنت يا ولدي غرٌ ما تعرف ما يراد بك، ولم يأن لك ذلك، فأمسك عنها ولم يقل لها شيئاً، فلما كان ذات يوم خرج إلى الجبل ليحتطب ومعه دابة فنزل عنها ليجمع حطباً، فلما جمع ورجع وجد **السبع** قد افترسها، فجعل يده في رقبة السبع وقال له: **يا كلب الله** وحق سيدي لأحمِلنَّك **الحطب** كما تعديت على دابتي، فحمل على ظهره الحطب وهو طائع لأمره حتى وصل إلى دار أمه، فقرع عليها الباب ففتحت له وقالت لما رأت ذلك: يا بني أمَّا الآن فقد صلحتَ لخدمة الملوك، اذهب فقد وهبتك لله عزّ وجل، فودعها وذهب.

وروي عن الشيخ العارف بالله تعالى **شاه بن شجاع الكِرماني** رضي الله عنه، أنه خرج للصيد وهو ملك كرمان فأمعن في الطلب حتى وقع في بَريّة مُقفرة وحده فإذا هو بشاب راكب على **سبع** وحوله **سباع**، فلا رأتهُ ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه، وخرجت عجوز بيدها شربة ماء، فناولتها الشاب فشرِب ودفع باقيه إلى شاه فشرِب وقال: ما شربت شيئاً ألذَّ منه ولا أعذب، ثم غابت العجوز فقال الشاب: هذه الدنيا وكَلَها الله إلى خِدْمَتي، فما احتجت بشيء إلا أحضرته إليَّ حين يخطر ببالي، أما بلغك أن الله تبارك وتعالى لما خلق الدنيا قال لها: **«يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه؟»**[1] ووعظه وعظاً حسناً، فكان ذلك سبباً لتوبته وخروجه من الملك ودخوله في طريق القوم حتى كان من أمره ما كان.

وكذلك الحيَّة التي شوهدت تروح على **إبراهيم بن أدهم** بالنرجس وهو نائم في البستان، **والظبية** التي كانت تأتي بعضهم فيشرب لبنها في بعض **البراري**، **والطيور** التي

---

(١) من كلام أبي حازم رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، برقم (١٤) [٢/ ٦٥] ونص كلامه: «أوحى الله عزّ وجل إلى الدنيا من خدمك فأتعبيه ومن خدمني فاخدميه».

كانت تؤانسهم في **الجبال والقفار**، وتحمل إليهم أنواع الثمار، وغير ذلك مما اشتهر وانتشر عنهم، ولا ينكر ذلك من له أدنى اطلاع على المنقول الذي لا يحصيه السِفر ولا السفران مما امتلأت باليسير منه كتب الحقيقة، ومما نبهت عليه في هذا التأليف، إنما هو قَل من كُثرٍ وغيضٌ من فيضٍ لمناسبة الاختصار ونسأل الله أن يوفقنا للتخلق بهذا المقدار، إنه المنعم الوهاب المعطي من شاء ما شاء بغير حساب.

فإن قلت:

ما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟

قلت: الفرق بينهما كما قال الأصوليون: إنما هو تحدِّي النبوة، وقولهم تحدي النبوة فيه احتراز من تحدي الولاية؛ فإنه لو اقترن الخارق بدعوى الولاية جاز على الصحيح عند المحققين.

ومن ذلك ما روي أنه لما أكثر أهل الرحبة الإنكار في باب الكرامات، ركب الشيخ الكبير الولي الشهير **جابر الرحبي** رضي الله عنه **أسداً** ودخل الرحبة وقال: أين الذين يكذبون أولياء الله؟ فكفُّوا بعد ذلك.

واعلم أنهم لا يتظاهرون بالكرامات إلا لأمور مهمة.

فإن قلت: هل يجب على الوليِّ أن يتحدى بالكرامة كالنبي يتحدى بالمعجزة أو يخفيها؟ قلت: **أمَّا النبي** فيجب عليه أن يتحدى بالمعجزة ويظهرها، والكرامة يجب على الولي أن يخفيها ويسترها إلا عند ضرورة أو إذن أو حال غالب لا يكون له فيه اختيار، أو لتقوية يقين بعض المريدين.

وبيان ذلك: أنه لا يخلو إما أن يكون إظهار الكرامة بإذن أو بغيره، والأول جائز. والثاني إما أن يكون باختيار أو بغيره، والثاني جائز، والأول لا يخلو إما أن يكون لضرورة أو لغيرها، والأول جائز، والثاني لا يخلو إما أن لا يكون لمصلحة أو يكون، والثاني جائز، والأول لا يجوز. وأما مِثال هذه الأربعة المستثناة وهي: الإذن، وعدم الاختيار، والضرورة، والمصلحة، فاثنان منها ظاهران وهما الإذن وعدم الاختيار، والمصلحة هي تقويم يقين بعض المريدين، وبقيت الضرورة، ومثالها ما روي أن بعض الملوك الكفار قال لبعض المشايخ: إمَّا أن تظهر لي آية وإلا قتلتك وقتلت الفقراء، فأظهر له آيةً وهي أنه كان بِقُربه بعَر **الجمال** فإذا هي ذهبٌ، وعنده كوز ليس فيه ماء، فرمى به في الهواء فامتلأ ماء، وانتكس رأسه إلى تحت، ولم يخرج منه قطرة ماء، فتحير الملك من ذلك، فقال له جلساء السوء: هذا سحر، فقال

الشيخ: أرني آية أخرى، فأمر الفقراء فأوقدوا ناراً عظيمة ثم أمرهم بالسماع، فلما دار فيهم الوجد دخل الشيخ هو وهم فيها، ثم خطف ابن الملك فأدخله معهم، ثم غاب به ساعة، ففجع الملك على ولده ثم ظهر وفي إحدى يدي ولد الملك تفاحة وفي الأخرى رمّانة، فقال له الملك: يا ولدي أين كنت؟ قال: في بستان فأخذت منه هاتين الحبتين، فعَظُمَ عجب الملك من ذلك. فقال له أهل الشؤم والحرمان: هذا سحر أيضاً. فعند ذلك قال الملك: كل ما تظهره لي لا أصدق به حتى تشرب ما في هذا الكأس. وأخرج له كأساً مملوءة سُمًّا، فأمر الشيخ الفقراء بالسماع، فلما دار فيهم نشوة الحال دخل السماع وشربه، فتمزقت الثياب التي عليه فألقوا عليه ثياباً غيرها فتمزقت أيضاً وهكذا إلى أن ثبتت الثياب عليه ولم يصبه سوء أكثر من أن ترشح عرقاً كثيراً فآمن الملك عند ذلك بذلك، فهذا مثال الضرورة المذكورة والله أعلم.

واعلم أنه ليس كل كرامة لولي يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء، بل لو لم تكن لولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه ولياً بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليلاً على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله، فكل من كان أقوى يقيناً وأكمل معرفة كان أفضل.

ولهذا قال الجنيد رضي الله عنه: قد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً. ولأنَّ الكرامة قد تقع لكثير من المحبين والزهّاد، ولا تقعُ الكثير من العارفين، والمعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين، وأفضل من الزهد عند الكل؛ وهذا لأنَّ النبى ـ كما مرَّ ـ أنه يجب أن يكون له معجزة، لأنه مبعوث إلى الخلق فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه ولا يُعلم ذلك إلا بالمعجزة. وبعكس ذلك كان الولي لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي العلم بأنه ولي على قول من قال: لا يجوز ذلك لأنه يخرجهم من الخوف ولا يأمن أن يخاف تغيير العاقبة فالذي تحدونه في قلوبهم من الهَيبة والتعظيم والإجلال للحق يزيد على كثير من الخوف، وليس للوليّ مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، وربما يكون لهم في ظهور جنسها قوة ويقين وزيادة بصيرة لتحقيقهم أنَّ ذلك فعل الله؛ فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد. فإن قيل: فهل يكون الوليُّ معصوماً؟ قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يُصرَّ على الذنوب وإن حصلت هُنيهات أو آفات أو زَلاَّت فلا يمتنع ذلك في وصفهم.

ومن ثم قيل **للجنيد**: العارف مُزيَّنٌ يا أبا القاسم!! فأطرق مَلِيًّا ثم رفع رأسه وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فإن قيل: هل يجاوز الوليُّ خوف المكر؟ قيل: إذا كان مصطلحاً عن مشاهدة مختلفاً عن إحساسه بحاله فهو مستهلك عنه فيما استولى عليه وللخوف من صفات الحاضرين مع حبِّهم.

فإن قيلَ: فما الغالب على الوليِّ في أوان صحوه؟ قيل: صِدْقهُ في أدَاء حقوقه سُبحانه ثم رِفقهُ وشفقتهُ على الخلق في جميع أحواله، ثم انبساط رحمته لكافة الخَلْق، ثمَّ دوام تحمله عنهم بجميل الخُلق وانتدابه لطلب الإحسان من الله إليهم من غير التماس منهم وتعليق الهِمَّة بنجاة الخَلْق وترك الانتقام منهم، والتوقي من استشعار حقدٍ عليهم مع قصور اليد عن أموالهم، وترك الطمع بكل وجهٍ فيهم، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتعاون عن شهود مساويهم، ولا يكون خَصماً لأحدٍ في الدنيا ولا في الآخرة. وسئل **محمد بن السّري** رضي الله عنه عن:

علامات الأولياء:

فقال: يُعرفون من الخَلْق بلطف ألسنتهم، وحسن أخلاقهم، وبشاشة وجوههم، وسخاء نفوسهم، وقلة اعتراضهم، وقبول عذر من اعتذر إليهم، وتمام الشفقة على خلق الله تعالى.

[أحوالهم عند الموت]:

وأمَّا أحوالهم عند النزع للموت فاعلم أن أحوالهم في تلك الحالة مختلفة: فبعضهم الغالب عليه الهَيبة، وبعضهم الغالب عليه الرجاء، ومنهم من كشف له في تلك الحالة بما أوجب له السكون وجميل الثقة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] يعني طيبة نفوسُهم ببذلهم مهجهم لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم.

وعن ثابت عن **أنس** أنَّ النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «**كيف تَجِدُك؟**» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاهُ الله ما يرجوه ونجاه مما يخاف**»(١)

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، ما يقول المريض إذا قيل له: كيف تجدك؟ حديث رقم (١٠٩٠١) [٦/ ٢٦٢] والترمذي في سننه، باب ١١، حديث رقم (٩٨٣) [٣/ ٣١١] ورواه غيرهما.

وقال الجريري: كنا عند الجُنيد في حالة نزعه وكان يوم الجمعة يوم أتينا وهو يقرأ القرآن فختم فقلت في هذه الحالة: يا أبا القاسم فقال: ومن أولى منّي بذلك وهو ذا تُطوَى صَحيفَتي. وقال أبو محمد الهروي: كنت عند الشبلي الليلة التي مات فيها فكان يقول طول ليلته هذين البيتين:

كـل بـيـتٍ أنـت سَـاكـنـه غـيـر مـحـتـاج إلـى الـسُّـرُج
ومـعـك الـمـأمـول حـجـتـنـا يـوم يـأتـي الـنـاس بـالـحُـجَـجِ[1]

قال رُويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول في آخر نفسه:

حنين قلوب العارفين إلى الذكرِ وتذكارهم وقت المناجاة السُّكر
ديرت كُؤوس المنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كإغفائي
وهمُّوا أجواله بمُعسكرِ به أهل والله
أجسامهم في الأرض قتلى بحُبهِ وأرواحهم في الحجب تحت
وما عرَّشُوا إلا بقربِ حبيبهم وما عرجوا عن مَسِّ بؤسٍ ولا طوى

قيل لذي النون المصري عند موته: ما تشتهي؟ قال: أشتهي أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لأبي محمد الديلمي وقد حضرته الوفاة قل: لا إله إلا الله. فقال: هذا شيء قد عرفناه وبه نغني ثم أنشد:

نـزل ثـوب الـتـيـه لـمـا هـويـتـه وَصَـدٌ ولـن يـرضـى

وقيل للشبلي عند وفاته: قل لا إله إلا الله، فقال:

قال سلطان حُبِّهِ أنا لا أقبل الرّشَا فسلوه فَديتُه لِم بقلبي تَحرَّشا

وقال: الرُوذباري عند وفاته ورأسه في حجر أخته فاطمة، وقد فتح عينيه هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زُينت وهذا قائل يقول لي: يا أبا عليّ قد بلغناك الرتبة القُصوى وأنشد يقول:

وحـقـك لا نـظـرت إلـى سـواكـا حـتـى أراكـا
أراكَ مُـعَـذبـي بـفـتـور لـحـظ وبـالـحـدِّ الـمـودّ مـن حـاكـا

---

(١) البيت الأول هو للشاعر محمد بن قمر الدين المجذوب من شعراء السودان وهو مجهول تاريخ الولادة والوفاة.
وأما البيت الثاني فلم أعثر على قائله.

وقيل للجنيد قل: لا إله إلا الله. فقال: ما نسيته فأذكره.

قيل لبعضهم: تحب الموت؟ فقال: القُدُوم على من شري خيره، خير من البقاء مع من لا يؤمن شَرُّه. وقال أبو الحسين الزغبي لما مرض أبو يعقوب النهرجوري مرض موته فقلت له وهو في النزع: قل: لا إله إلا الله، فتبسّم وقال: إيَّاي تعني وعزة من لا يذوق الموت ما بيني وبينه إلا حجاب العزة وانطفأ من ساعته.

فكان أبو الحسين بعده يمسك بلحيته ويقول: حجّام مِثلي يُلقِّن أولياء الله الشهادة، واخجلتاه!!.

وأمَّا الفقير ـ مؤلف هذا الكتاب ـ فقد حضرت جَدِّي سيدي علي المرصفي عند موته فلمّا أخذ في النَّزع قام بنفسه وتوجَّه إلى القبلة مستلقياً من غير معين، وسمعت لروحه لمَّا بلغت حَلقِهِ صوتاً بالتوحيد يقول: الله الله الله ثلاثاً ممدودة مفسرة وطلعت مع الكلمة الثالثة وغَشته في ذلك الوقت نور محسوس وشممت رائحة الطيب عند ذلك، ولبثت أنا وغيري أياماً نشمُّه في البيت الذي مات فيه، نفعني الله ببركاته في الدنيا والآخرة والمسلمين أجمعين آمين، والله أعلم.

هذا من بعض أحوالهم عند الموت.

أحوالهم بعد الخروج من الدنيا:

وأمَّا بعد الموت فإنما يعرف بالرؤية إذ هي حق أو هي من انواع الكرامات كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. قيل: هي الرؤيا الحسنة يراها المرءُ أو تُرى له.

وعن أبي صالح عن أبي الدرداء قال: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. قال: ما سألني عنها أحدُ قبلك هي الرؤيا الحسنة يراها المرءُ أو تُرى له[١].

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه، قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] حديث رقم (١٠٦٦) [٥/٣١٨] والذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال، حرف العين، رقم (٥٢٢) [٨/١٤٦] ورواه غيرهما.

وعن أبي سلمة عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرؤية من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل عن يساره وليتعوذ فإنها لا تضره**»(١)

وفي الحديث «**مَن رآني فقد رآني حقاً، فإنَّ الشيطان لا يتمثل في صورتي**»(٢).

وقال **أبو علي**: تعوَّد **شاه الكرماني** السَّهر، فغلبه النوم مرة، **فرأى الحق سبحانه وتعالى في النوم** فكان يتكلَّف النوم بعد ذلك. فقيل له في ذلك فقال: رأيت سرور قلبي في منامي؛ فأجبت النَّفس للنيام.

وقد ورد أنَّ روح النائم على طهارة يُؤذن لها في السجود تحت العرش، ويباهي اللَّهُ به الملائكة. فيقول: انظروا إلى عبدي روحه في محلِّ النَّجوى وبدنه على بساط العبادة. والنوم على قمامِ نوم غفلة وعادة وذلك غير محمود بل ورد النوم أخو الموت.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزُّمَر: ٤٢] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعَام: ٦٠].

وقيل: أوحى الله إلى **داود** ـ عليه السلام ـ يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جَنَّه الليل نام عنِّي. ومن ثم قال **الشبلي** نومه في ألف سنة فسيحة ونوم على يقظة وحضور. وهو الذي قال فيه بعضهم: لا تنم حتى تعرف كيف نام.

وفي هذا معان ليست في اليقظة منها: أنه ربما رأى **الحقَّ** جلَّ وعَلا **والمصطفى** ﷺ والصحابة والسلف الماضين وغيرهم، ولا يراهم في اليقظة وهذه مزيَّة عظيمة.

قيل: رأى **أبو بكر الآجري الحق** سبحانه وتعالى في النوم، فقال: سَلْ حاجتك، فقال: اللهمَّ اغفر لعصاة أُمة محمد ﷺ، فقال: أنا أولى منك بهذا، سل حاجتك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب النفث في الرقية، حديث رقم (٥٤١٥) [٥/ ٢١٦٩] ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا حديث رقم (٢٢٦١) [٤/ ١٧٧١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، حديث رقم (١٠٦) [١/ ٥٢] وابن أبي شيبة في مصنفه، ما قالوا فيمن رأى النبي ﷺ في المنام، حديث رقم (٣٠٤٦٧) [٦/ ١٧٤].

وقال الكافي: رأيت النبيَّ ﷺ في النام فقال: من تتوبن للناس بشيء علم الله منه خلافه شانه الله. وقال أيضاً: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام، فقلت: ادع الله ألاَّ يميت قلبي. فقال: قل كل يوم أربعين مرة يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت.

ويروى عن **أبي يزيد** أنه قال: رأيت **ربي** في المنام فقلت: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعالى.

وقال **يحيى بن سعيد القطَّان**: رأيت ربي في المنام، فقلت: يا رب كم أدعوك فلا تستجيب لي، فقال: يا يحيى إني أحبُّ أن أسمع صوتك.

وقال **بشر بن الحارث**: رأيت أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** في المنام فقلت: يا أمير المؤمنين علِّمني، فقال: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء؛ طلباً لثواب الله، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله. فقلت: يا أمير المؤمنين زدني، فقال:

كنت ميتاً فصرت حيا … وعن قريب تصير ميتا
عز بدار الفناء بيتاً … وابن بِدارِ البقاء بيتا

ورُؤيَ بعضهم في النوم فسُئل عن حاله فقال:

حَاسبونا فدققوا … ثم منوا فأعتقوا

ورُؤي مالك رضي الله عنه في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة: سبحان الحي الذي لا يموت.

ورؤي النصرباذي بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عوتبت عتاب الأشراف ثمَّ نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال. فما وضعت في اللحد حتى لحقت بالأحَد.

ورؤي الشبلي في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني بالبراهين إلاَّ على شيء واحد قلت يوماً: لا خسارة أعظم من خسران الجنَّة ودخول النار. فقيل لي: وأي خسران أعظم من خُسران لقائي.

وقال ابن الجلاَّ: دخلتُ المدينة وبي فاقة فقدمت إلى القبر الشريف فقلت: ضيفُك، وغفوت فرأيت النبي ﷺ وقد أعطاني رغيفاً **فأكلت نصفه وانتبهت وبيدي النصف الثاني**.

وقال بعضهم: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام يقول:

زوروا ابن عون فإنه يحب الله ورسوله. وقيل: رأى عُتبة حوراً في المنام على صورة حسنة. فقالت: يا عتبة، أنا لك عاشقة فانظر أن لا تعمل من الأعمال شيئاً يُحال بيني وبينك. فقال عتبة: طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعةَ بي عليها حتى ألقاك.

وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاصٍ فدخل دهليزاً ليلاً يُصلي عليها فرأى بعضهم الميت في المنام. فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وقال: قل لأيوب ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسرَاء: ١٠٠].

ولما مات ابن دينار رؤيت أبواب السماء مفتحة وسمع قائل يقول: ألا إنَّ مالك بن دينار أصبح من سكان الجنة.

وقال أبو بكر الكفاني: رأيت في المنام شاباً لم أرَ أحسن منه، فقلت: من أنت؟ قال: التقوى، قلت: أين تسكن؟ قال: في كل قلب حزين، ثم التفت فإذا امرأة سوداء كأوحش ما تكون فقلت: مَن أنت؟ فقالت: الضحك. فقلت: أين تسكنين؟ فقالت: في كل قلب فروح مرِح.

وقال علي بن موفق: كنت أفكر يوماً في سبب عيالي والفقر الذي بي فرأيت في المنام رقعة فيها بسم الله الرحمٰن الرحيم يا ابن موفق أتخشى الفقر وأنا ربك؟ فلما كان وقت الغلس أتاني رجل بكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال: خُذها إليك يا ضعيف اليقين.

وحكي عن أبي عبد الله بن خفيف أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: من عرف طريقاً إلى الله يسلكه ثم رجع عنه عذّبه الله عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين.

[خاتمة المؤلف]

هذا آخر ما أردنا إيراده في هذا المؤلف على وجه الاختصار. وأسأل الله النفع به لي ولسائر المسلمين في الدنيا وفي دار القرار. إنه على ما يشاء قدير. وبعباده لطيف خبير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين آمين.

قال: ذلك وكتَبَه بيده الفانية مؤلفه ـ لطف الله ـ به في الدارين في يوم الجمعة التاسع عشر من ذي القعدة الحرام سنة سبع وأربعين وتسعمائة.

تمّ بحمد الله

فهرس المحتويات

تقديم ٣
ترجمة الشيخ العارف بالله تعالى عبد القاهر السهروردي مؤلف كتاب «آداب المريدين» ٥
ترجمة الشيخ محمد المرصفي مؤلف كتاب «داعي الفلاح إلى سبيل النجاح» ٦
خطبة المؤلف ٧
مذهب الصوفية في أصل الاعتقاد ٩
فصل القول في الفقر والغنى ١٢
فصل الفقر غير التصوف ١٣
فصل الكلام على فروع الدين وأحكامه ١٧
فصل في ذكر أقاويلهم في التصوف وآدابهم ١٩
فصل في ذكر أحكام المذهب ٢٠
فصل أخلاقهم أجل الخصال ٢١
فصل مقام العبد بين يدي الله في عباداته ٢٣
فصل الأحوال معاملات القلوب ٢٣
فصل في ذكر اختلاف المسالك والمقصود واحد والمقاصد مختلفة لاختلاف حال القاصدين ومقامات السالكين ٢٤
فصل في ذكر قولهم في فضل العلم ٢٥
فصل في ذكر آدابهم في محاوراتهم ٢٦
فصل الشطحات المحكية عن أبي يزيد وغيره ٢٧
فصل في ذكر آدابهم في حال البداية ٢٨
فصل الاجتهاد في معرفة النفس وأخلاقها ٣٢
فصل في ذكر آدابهم في صحبة بعضهم بعضاً ٣٤
فصل مصاحبة الجنس ومن يستفيد منه خيراً ٣٤
فصل في ذكر آدابهم في الأسفار وفضلها ٤٤
فصل في ذكر آدابهم في اللباس ٤٨
فصل في ذكر آدابهم في الأكل ٤٩
فصل أكثر الناس شبعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة ٥٢
فصل في ذكر آدابهم في النوم ٥٤
فصل في ذكر آدابهم في السَّمَاع ٥٥
فصل في ذكر آدابهم في التزويج ٦١
فصل في ذكر آدابهم في السؤال ٦٣
فصل في ذكر آدابهم في حال المرض ٦٥
فصل في ذكر آدابهم في حال الموت ٦٦

فصل في ذكر آدابهم وقت البلاء	٦٨
فصل في ذكر آدابهم في الرُّخص	٧١
داعي الفلاح إلى سبل النجاح	٨٥
مقدمة المؤلف	٨٧
أحكام تجريد الظاهر والباطن	٨٨
التحلي بمحاسن الصفات	٨٩
التحلي بمساوىء الصفات	٨٩
جزاء التحلِّي بمحاسن الأخلاق	٩٠
الأحوال السنية	٩٠
تفصيل مهمات تدعو إليها الضرورة	٩١
التجريد الحقيقي لأهل الكمال	٩٧
تقسيم النَّفس	٩٩
مراتب التوحيد	
أنواع الخواطر وكيفية نفيها	١٠٠
الترغيب في الذكر	١٠١
آداب الذكر	١٠٧
شروط الشيخ	١١٠
مراتب الصحبة	١١٢
مراتب الأخذ	١١٣
بيان التصوف والصوفي	١١٣
بيان الفرق بين التصوف والفقر والزهد	١١٥
بيان الفرق بين الصوفي والمتصوف والمتشبِّه	١١٧
خاتمة في إثبات كرامات الأولياء، وبعض آثار من مناقبهم، وذكر خروجهم من الدنيا وفي رؤيا القوم بعد الخروج منها	١٢٠
بيان معنى الوصال والوصل والوصول والاتصال	١٢٥
كرامة: انغلاق البحر وجفافه	١٢٦
كرامة: انقلاب الأعيان	١٢٦
كرامة: علمهم ببعض الحوادث قبل وجودها والاطلاع على ضمائر الخلق	١٢٨
كرامة: كلام الجمادات والحيوانات لهم	١٣٠
كرامة: إبراء العليل ببركتهم	١٣١
كرامة: طاعة الأشياء لهم	١٣٢
علامات الأولياء	١٣٥
أحوالهم عند الموت	١٣٥
أحوالهم بعد الخروج من الدنيا	١٣٧
خاتمة المؤلف	١٤١